١٠٣

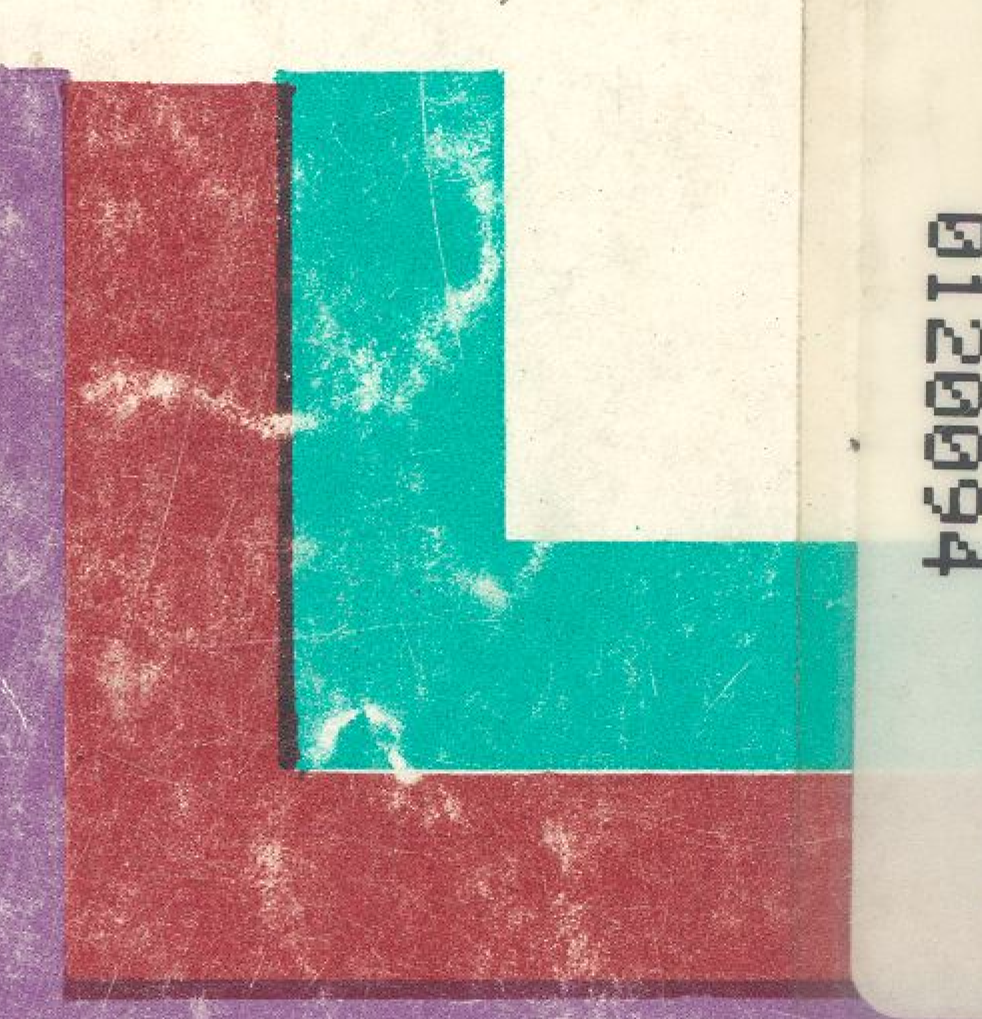
تاريخ المصريين

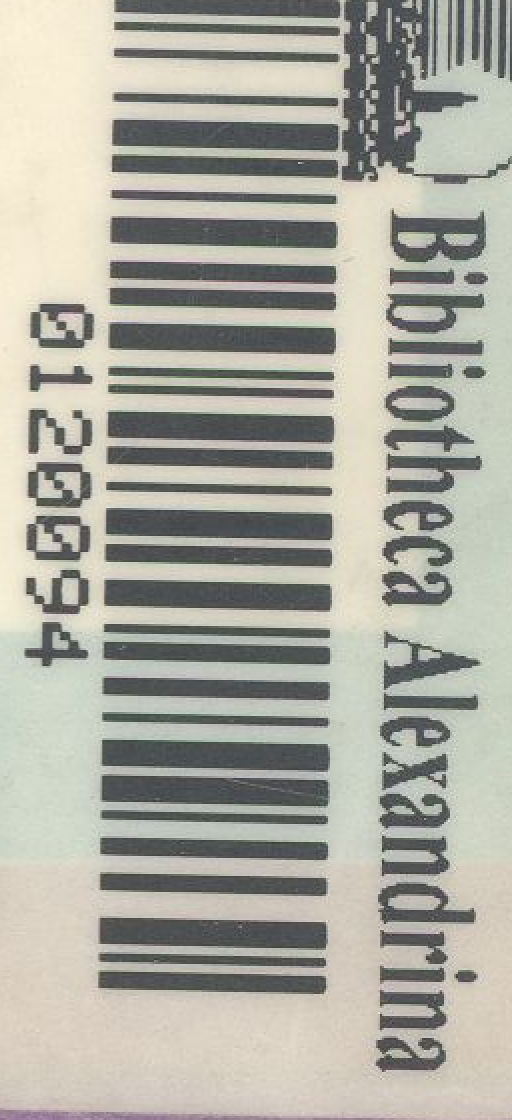


رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره

د. علي بركات







تاريخ المصـــــريين (١٠٣)

تاريخ المصريين

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



رؤية الجبرتى

لبعض قضايا عصره

د . على بركات



الهيئة المصرية العامة للكتاب

فرع الصحافة

١٩٩٧

تقـــــديم

يسرنى أن أقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب عن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتى ، الذى كتبه الأستاذ الدكتور على بركات ، استاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب ، بجامعة حلوان .

وقد سبق لهذه السلسلة فى العدد (٨) ، أن قدمت للدكتور على بركات كتاب : « رؤية الجـــبرتى لأزمة الحياة الفكرية فى عصره » ، ونفدت طبعته فى فترة وجيزة ، والححت على الدكتور على بركات فى اعادة طبعه ، ولكنه كان يطلب منى الامهال حتى يعيد قراءته ، ويرى ما اذا كان يستحق اضافة يضيفها أو تصحيحا أو تعديلا .

واخيرا استقر رأيه على أن الكتاب فى حاجة الى تعديلات واضافات ، فمن ناحية جرى التركيز على الجزء الخاص بالمتغيرات الاقتصـــادية والاجتماعية ، التى كان من الضـــرورى أن تنعكس آثارها على الحياة الفكرية والثقافية ، ومن ناحية أخرى جرى التركيز على نقد الجبرتى للحياة الفكرية والثقافية فى عصره ، لاستكشاف صحة راى الدكتور لويس عوض الذى صنف الجبرتى ضمن واضعى الفكر المصرى الحديث ، وقد خرج الدكتور على بركات براى مخالف اخذ يدلل عليه بأن الجبرتى كان سلفيا فى فكره .

ومن أجل هذا فقد تضمن هذا الكتاب ثلاثة فصول : الفصل الأول عن المؤرخ والعصـــــر ، ويتحدث عن الواقع السياسى والاجتماعى فى عصر الجبرتى . والفصل الثانى عن ثقافة المجتمع المصرى فى عصر الجبرتى ، ويفند فيه الدكتور على بركات الرأى القائل بمسئولية العصر العثمانى وحده عن التدهور الذى أصاب الحياة الفكرية والدينية ، ويحدد الأسباب الحقيقية برؤية شاملة . أما الفصل الثالث فهو عن الجبرتى والفكر السلفى ، ويتضمن رؤية الدكتور على بركات لموقف الجبرتى من الفكر السلفى ، التى انتهى منها الى أن الجبرتى كان سلفيا فى فكره .

والكتاب على هذا النحو يعد اضافة تاريخية وفكرية تتيح له أن يحتل مكانا مرموقا فى سلسلة تاريخ المصريين خاصة ، والمكتبة العربية عامة .

والله الموفق ،،،

رئيس التحرير

أ . د . عبد العظيم رمضان

مقدمـــة

منذ بضع سنوات نشرت لى هذه السلسلة كتابا تحت عنوان «رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية» وعندما طلب منى الصديق الدكتور عبد العظيم رمضان اعادة طبعه وجدت نفسى أعيد النظر فى بعض جوانبه . فمن ناحية جرى التركيز على الجزء الخاص بالبناء الاقتصادى والاجتماعى الذى شهد تغيرات ملحوظة فى زمن الجبرتى كانت لها آثارها الواضحة على البناء الثقافى والفكرى . ومن ناحية أخرى أعدت طرح الجزء الخاص بالحياة الفكرية والثقافية مركزا على نقد الجبرتى لها كجزء من نقده للمجتمع فى عصره .

ولما كان لويس عوض قد صنف الجبرتى ضمن واضعى الفكر المصرى الحديث شأنه فى ذلك شأن الشيخ حسن العطار فقد رأيت مناقشة الموضوع على ضوء موقف الجبرتى من الفكر السلفى وبالتالى اختلف الهدف من توظيف الجزء الأخير من الدراسة فى هذه الطبعة الخاص بالدعوة السلفية التى دعا بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى نجد من شبه جزيرة العرب ومنه سوف نلاحظ أن الجبرتى كان سلفيا فى فكره .

تلك هى التغييرات التى رأيت أنها ضرورية عند اعادة طرح الموضوع وأرجو أن يجد فيها القارىء مبررا لاعادة نشره .

والله ولى التوفيق ..

د . على بركات

الفصل الأول

المؤرخ والعصر

(الواقع السياسي والاجتماعى في عصر الجبرتى)

المؤرخ والعصر

(الواقع السياسى والاجتماعى فى عصر الجبرتى)

ولد عبد الرحمن الجبرتى فى عام ١١٦٧ هـ (١٧٥٤ م) ، ومات فى عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ / ١٨٢٥ م) . على وجه التقريب(١) .

وعلى ذلك فالجبرتى عاش النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، والربع الأول من القرن التاسع عشر . وهى الفترة التى شهدت انحلال النظام العثمانى المملوكى ومحاولات المماليك التمرد على السلطة العثمانية ، وكانت بداية الاضطراب اخفاق المحاولة التى قام بها على بك الكبير للقبض على زمام الأمور فى مصر (١٧٦٧ — ١٧٧٢ م) . ومن ثم انفتح الطريق للصراع بين العصبيات المملوكية ، من أجل الانفراد بالسلطة ، مستغلة اختلال أمر الجند العثمانيين ، وبذلك فقد النظام أساس توازنه ، وشهدت مصر منذ انتهاء حكم على بك الكبير ، حتى مجيء الحملة الفرنسية، فترة من أكثر فترات تاريخها اضطرابا(٢) .

وخلال هذا الجو المضطرب . كانت هناك فئة اجتماعية ، استطاعت أن تحافظ على كيانها وتقاليدها ، سواء فى العلم ، أو فى السلوك الاجتماعى ، وتتمتع بقدر من الاستقرار النسبى ،

تلك هى فئة العلماء ، التى كانت تتمتع بمكانة خاصة فى المجتمع المصرى ، ومن هذه الفئة الاجتماعية ينحدر عبد الرحمن الجبرتى ، فقد كان والده عالما من علماء الأزهر القلائل ، المهتمين بجوانب من العلوم الطبيعية او التطبيقية ، الى جانب العلوم الدينية ، وقد اخذ عنه الجبرتى الاهتمام بمثل هذه العلوم ، فهو لم يقنع بدراسة العلوم الدينية فحسب ، بل أضاف اليها طائفة من العلوم الطبيعية، مثل الفلك والطب والحساب(٣) . وتتلمذ على الكثيرين من علماء عصره ، مستفيدا من البيئة العلمية التى تربى فيها ، وقد صور الجبرتى البيئة التى نشأ فيها من خلال ترجمته لحياة والده الشيخ حسن الجبرتى . فقال : « ان والده كان اذا أتاه طالب ، فرح به ، وأقبل عليه ، ورغبه وكرمه اذا كان غريبا ، وربما دعاه للمجاورة عنده ، وصار من جملة عياله ، ومنهم من أقام عشرين عاما قياما ونياما ، لا يتكلف شيئا من أمر معاشه ، حتى غسيل ثيابه ، من غير تعب ولا ضجر ، وأنجب عليه كثير من علماء وقته المحققين طبقة بعد طبقة »(٤) .

الى جانب هذا ، فان الجبرتى قد استفاد من وضع والده الاجتماعى ، وعلاقاته الواسعة بأصحاب السلطة ، من الأمراء والمماليك ، والأجناد وكبار العلماء ، فى التعرف على معظم شخصيات عصره ، وعلى الاتجاهات الفكرية السائدة فى تلك الفترة ، مما جعله اكثر تفهما لما يدور حوله(٥) .

ثم تتلمذ الجبرتى مع طائفة من العلماء على الشيخ مرتضى الزبيدى (نسبة الى زبيد) ، الذى قدم من اليمن خلال تلك الفترة، بعد أن زار أقطارا عديدة ، من بينها الحجاز ، وكان الزبيدى من ابرز علماء العصر(٦) . واليه يرجع الفضل فى اهتمام الجبرتى بكتابة التاريخ .

ذلك أن الشيخ محمد خليل المرادى ، مفتى دمشق ، كان فى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى ، يقوم بعمل ترجمة لأعلام ذلك القرن ، وطلب فى عام ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥ م) من الشيخ الزبيدى أن يساعده فى ذلك ، يجمع تراجم المصريين والحجازيين، وعندما بدأ الزبيدى القيام بهذا العمل ، طلب من تلميذه عبد الرحمن الجبرتى أن يشاركه فى جمع تراجم العلماء المصريين ، خصوصا أن الزبيدى كان حديث العهد بمصر ، وشرع الجبرتى فى القيام بهذا العمل ، وأخذ يدون تراجمه لمشايخ الأزهر وأمراء الأوجاقات والسناجق ومشايخ البلد ، واعتمد فى ذلك على صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب ، الذى كان من عدول المحكمة الشرعية ، وكذلك اعتمد على نقوش المقابر ، وروايات المعمرين(٧) .

لكن الزبيدى توفى فى عام ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) ، وبيعت متروكاته بما فى ذلك الكتب و « الدشتات » ، فاشتراها الجبرتى ، ومن بينها عشر كراسات ، كان الزبيدى قد أنجزها عن تراجم القرن الثانى عشر الهجرى ، وسماها المعجم المختصر ، غير أنه فى أعقاب وفاة الزبيدى ، وصل الى الجبرتى خطاب من المرادى ، يطلب فيه ما جمعه الجبرتى من تراجم ، وما حصل عليه من الزبيدى فى هذا الموضوع ، فأدرك الجبرتى من هذه الرسالة أن كتابة التراجم كانت بناء على رغبة المرادى(٨) . وعندما شرع الجبرتى فى العمل على ضوء هذه الحقيقة ، كان المرادى بدوره قد توفى فى عام ١٢٠٦ هـ (١٧٩١ م) ، مما أدى الى فتور همة الجبرتى فى كتابة التراجم ، حتى عاد من جديد الى كتابة التاريخ فى شكل أكثر شمولا ، حيث أضاف الى كتابة التراجم المذكرات اليومية ، ابتداء من عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) ، عند نزول قوات الحملة الفرنسية الى مصر ، والتى راح يدون أحداثها فى شكل يوميات .

ومع رحيل الحملة الفرنسية عن مصر عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) ، كان الجبرتى قد قام بعملين رئيسيين فى كتابة تاريخ تلك الفترة : **أولهما** تراجم متناثرة لأعيان القرن الثانى عشر الهجرى . **والآخر** كان تاريخا متكاملا فى شكل مذكرات لأحداث مصر فى ظل الاحتلال الفرنسى ، ومالبث الجبرتى أن قام بعملية ربط بين العملين ، مع مواصلة مذكراته ، لتشمل الفترة حتى عام ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ م) ، ومعنى هذا أن الجبرتى جمع من مصادر متعددة ما استطاع جمعه من وقائع القرن الثانى عشر الهجرى ، حتى عام ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) ، وأخرج من هذا كله الجزءين الأول والثانى من كتابه « عجائب الآثار » ، ثم عدل فى « مظهر التقديس »(٩) ، وأخرج منه الجزء الثالث من عجائب الآثار ، بعد اضافة حوادث الفترة ما بين عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) ، وعام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ، ثم أخذ يدون مذكراته للجزء الرابع ، الذى يشمل تاريخ مصر من عام ١٢٢٢هـ ، الى ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠م)(١٠).
وعلى ذلك فقد عاش الجبرتى فترة الأحداث المتلاحقة التى شهدتها مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر حيث كانت الدولة العثمانية قد دخلت فى مرحلة من الضعف ، ابتداء من القرن السابع عشر ، فالسلاطين العثمانيون الذين شهدتهم تلك الفترة ، كانوا سلسلة من الحكام الضعاف ، يفتقدون القدرة والمهارة اللازمة على ادارة الدولة ، وقد فتح ذلك الطريق للصراع على السلطة ، بين كبار الموظفين ، وقواد الجيش والقصر ، ومالبث أن انتقل محور السلطة الى الصدور العظام ، بتولى أسرة كوبرولو لوظيفة الصدر الأعظم فى أواخر القرن السابع عشر ، وفى نفس الوقت كانت الادارة المركزية تعانى من الفساد والتدهور ، وخاصة الادارة المالية(١١)

أما نظام الانكشارية ، الذى كان يمثل العمود الفقرى للنظام العسكرى فى الدولة العثمانية ، فقد أخذ بدوره يتدهور ، ويتسرب

اليه الخلل ، وتفقد الانكشارية روحها العسكرية وانضباطها ، بعد أن سمح لأفرادها بالزواج ابتداء من عام ١٥٦٦ ، كما سمح لأبنائهم بالالتحاق بالجيش ، ومن ثم أصبحت هناك طبقة عسكرية وراثية أخذت ـ شيئا فشيئا ـ تحتكر لنفسها المناصب العليا في الدولة ، وفي نفس الوقت ، فان الدولة العثمانية لم تحاول أن تواكب التطورات المادية والفكرية التي حدثت في أوربا ، أو تحاول اكتشاف الأسباب التي استطاعت أوربا بها أن تحقق نهضتها ، كما ظلت النظم العثمانية جامدة ، لم تتغير منذ عهد سليمان القانوني(١٢) .

وخلال تلك الفترة كانت سلطة الحكومة المركزية على ولاياتها قد أخذت تضعف شيئا فشيئا ، مما ترك للقوى المحلية فرصة أوسع للعمل ، فالفراغ الذي نجم عن تقلص سلطة الدولة في الأقاليم ، ملأه الأعيان والزعماء المحليون ، واصحاب العصبيات ، وقبائل البدو ، وفي مواجهة تذهور السلطة في الاقاليم كان السلطان العثماني يحاول دون جدوى أن يظل هؤلاء الأعيان أو أصحاب العصبيات على ولائهم للدولة ، فمرة يعينهم في الوظائف الرسمية ، وطورا يقدم لهم الرشاوى ، ومرة ثالثة يرسل ضدهم الحملات العسكرية ، ولم يكن السلطان ومن حوله يملكون علاجا ناجعا لهذه الأوضاع(١٣) .

وكان ضعف الدولة العثمانية وتخلفها ، أكثر وضوحا في الولايات العربية ، التي أصبحت مسرحا للقلاقل والاضطرابات ، بعد أن أصيبت النظم العثمانية في الشرق العربي في القرن الثامن عشر بالانهيار ، نتيجة لاختلال التوازن بين السلطة المركزية ـ ممثلة في الباشا ـ من ناحية ، والحاميات العثمانية والعصبيات المحلية من ناحية أخرى ، وزاد من هذا الخلل تمرد

القبائل العربية فى صحراء سوريا وفى مصر ، وكذلك تمرد قبائل الأكراد فى شمال العراق .

وكان الباب العالى يعتريه الخوف من جراء هذه الاضطرابات فكان يتردد بين انتهاج سياسته التقليدية ، فى تغيير الباشوات العثمانيين بانتظام ، وتثبيت هؤلاء الباشوات ، خصوصا أولئك الذين أثبتوا قدرة فى اخضاع حركات التمرد ، وقد أدى تثبيت هؤلاء الباشوات الى تكوين أسر حاكمة فى بعض الولايات العربية ، مثل المماليك فى العراق ، وآل العظم فى سوريا ، كما ادى ضعف السلطة المركزية فى الدولة العثمانية الى قيام حركات ذات طابع انفصالى ، مثل حركة الشيخ ظاهر العمر فى فلسطين ؛ وحركة على بك الكبير فى مصر(١٤) .

وخلال هذه الفترة ، أصبح ضعف الدولة العثمانية اكثر وضوحا فى جبهات القتال ، وخاصة جبهة الصراع مع النمسا وروسيا ، فالهجوم العثمانى الذى استهدف الاستيلاء على فيينا عام ١٦٨٣ م (١٠٩٤ هـ) . فشل فى تحقيق أهدافه ، ومالبث ان تحول الى تقهقر ، أعقبته هزيمة ساحقة للقوات العثمانية ، أمام قوات الأمير يوجين فى معركة زنتا عام ١٦٨٧ ، وأرغم العثمانيون — نتيجة لذلك — على قبول معاهدة كارلوفتز فى يناير ١٦٩٩ م (١١١١ هـ) ، التى تنازل العثمانيون بمقتضاها عن ترانسلفانيا ومعظم اراضى المجر ، وأجزاء كبيرة من سلوفاكيا وكرواتيا للنمسا ، كما أعيدت سيادة بولندا كاملة على بادوليا وأوكرانيا(١٥) .

أما روسيا ، التى دخلت الحرب — خلال تلك الفترة — الى جانب النمسا ، فقد استطاعت الاستيلاء على ميناء أزوف فى القرم ، وبعض الأراضى عبر نهر الدنيستر ، واعترف العثمانيون بذلك فى

معاهدة وقعت فى استانبول فى يوليو ١٧٠٠ . وبمقتضى هاتين الاتفاقيتين وضعت روسيا والنمســـــا أسس تدخلهما فى الدولة العثمانية ، كما وضعت أراضى اسلامية ـ لأول مرة ـ تحت سيادة دولة مسيحية(١٦) .

وعلى الرغم من ان العثمانيين احرزوا بعض الانتصارات ضد روسيا والنمسا ، فى النصــف الأول من القرن الثامن عشـــر ، بفضل اسرة كوبرولو ، فان ضعف الدولة العثمانية أصــبح حقيقة واقعة فى الفترة التالية ، ففى الحرب التى نشبت بين الدولة العثمانية وروسيا ، بسبب المشكلة البولندية (١٧٦٨ ـ ١٧٧٧) ، أحرز الروس انتصــارات برية وبحرية على الدولة العثمانية ، وتمكن الأسطول الروسى من الوصول الى البحر المتوسط ، بعد أن تحرك من قواعده فى البلطيق ، وقد أحدث ظهور هذا الأسطول دويا كبيرا فى المنطقة ، واتصــلت به العناصــر الســلافية والأرثوذكسية ، التى ثارت على الدولة العثمانية فى البلقان خلال تلك الفترة ، بتحريض من روسيا(١٧) كذلك اتصلت به العناصر الثائرة فى الولايات العربية ، مثل على بك الكبير ، والشيخ ظاهر العمر .

وفى معاهدة كتشك قينارجى ـ التى أنهت هذه الحرب ـ فقدت الدولة العثمانية انفرادها بالسيطرة على البحر الأسود ، بعد ان اصبح لروسيا حق أقامة عدد من القواعد البرية والبحرية على شواطئه ، وأعطيت روسيا حق اقامة كنيسة أرثوذكسية فى استانبول ، وبذلك أصبح فى امكان روسيا التدخل فى شــئون الدولة العثمانية ، بدعوى حماية المســيحيين الأرثوذكس ، كما مهدت هذه الاتفاقية لاستيلاء الروس على أراضى خانات القرم المسلمين(١٨) .

هكذا تضافرت عوامل الضعف الداخلى ، وعوامل الضغط والتهديد الخارجى ، لتجعل الجدار الذى ظل حائلا دون أطماع الغرب لمدة قرون ، غير قادر على الصمود ، بعد أن أصبح مليئا بالثغرات ، التى مالبث أن نفذ منها الاستعمار الأوربى ، الى المنطقة العربية فى صور متعددة(١٩) .

وفى مصر ، تمثل ضغط الراسمالية العالمية ، فى محاولة احياء طريق السويس البرى ، حيث شهد النصف الثانى من القرن الثامن عشر اهتماما انجليزيا وفرنسيا ، شاركت فيه النمسا أيضا ، فى محاولة لاحياء طرق التجارة الدولية عبر البحر الأحمر ، ويرجع ذلك الى ثلاثة عوامل :

ـ **ضعف الدولة العثمانية** ، الذى أصبح واضحا خلال حركة على بك الكبير ، والحرب الروسية العثمانية التى عاصرتها .

ـ **بروز اهمية مصر** ، كحلقة فى الطريق الى الشرق ، وهو الوضع الذى اتضح خلال حرب السنوات السبع بين انجلترا وفرنسا (١٧٥٧ ـ ١٧٦٣) ، كطريق أقرب الى الهند ، لنقل البريد والمسافرين .

ـ **رغبة التجار البريطانيين الأحرار** ، فى وجود طريق مباشر للتجارة بين الهند وميناء السويس ،وكانت المراسلات بين هؤلاء التجار وعلى بك الكبير قد بدأت ، من أجل عقد معاهدة تجارية لتحقيق ذلك الهدف ، وقد أسفرت هذه الاتصالات عن عقد المعاهدة المعروفة ، بين حاكم البنغال وارن هستنجز ومحمد بك أبو الدهب ، الذى خلف على بك الكبير فى مصر ، وقد وقعت هذه الاتفاقية فى مارس ١٧٧٥ ، وبمقتضاها أصبح فى امكان

التجار الانجليز الحصول على المنتجات المصرية دون تحصـــيل ضــــرائب عليها ، وفى هذه المعاهدة تعهد محمد بك أبو الدهب بالمحافظة على التجارة عند نقلها من الطور أو الســـويس الى القاهرة(٢٠) ، وقد عارضت السلطات العثمانية هذه المعاهدة ، وطلبت من السلطات البريطانية منع السفن الانجليزية من الوصول الى السويس ، وقد استجابت الحكومة البريطانية على المستوى الرسمى لهذا الطلب ، ولكن السفن الانجليزية استمرت فى التردد على ميناء السويس ، مما جعل السلطان العثمانى يصدر فى عام ١٧٧٩ فرمانا ، يقضى بمنع الســـفن الانجليزية من الاقتراب من السويس(٢١) ، ومالبثت الدولة العثمانية أن أرسلت حملة القبطان حسن باشا عام ١٧٨٦ ، لوضع حد لسيطرة المماليك فى مصر .

وهناك ثلاثة عوامل كانت وراء معارضة الباب العالى لتلك المحاولات :

١ ــ معارضة المجتمع التجارى العثمانى فى جدة ، الذى كان يرى فى وصول التجارة الى ميناء السويس ، عاملا فى تدهور ميناء جدة ، لحساب ميناء السويس .

٢ ــ أن تدفق التجارة الشرقية عبر مصر ، سوف يزيد من قوة المماليك المتطلعين الى السلطة ، والمناوئين للحكم العثمانى .

٣ ــ أن عقد مثل هذه المعاهدات يعد اعترافا ضمنيا بسلطة المماليك فى مصر ، وافتئاتا على سلطة الباب العالى ، صاحب الحق فى السيادة على مصر(٢٢) .

وبسبب هذه المعارضة فشلت هذه المعاهدة ، وغيرها من المعاهدات ، التى حاولت انجلترا وفرنســا توقيعها مع سلطات

المماليك ، وبسبب حالة الفوضى التى عمت البلاد عقب فشـــل حـــركة على بك الـــكبير ، وموت خليفته محمد بك أبو الدهب ، وبسبب انشغال بريطانيا بالصـــراع ضـــد فرنســا فى الميدان الأوربى ، الذى كان من نتائجه ارسال الحملة الفرنســية على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١)(٢٣) .

وقد لقيت الحملة الفرنسية مقاومة عنيفة من جماهير المصريين فى الريف والمدينة ، وبسبب هذه المقاومة المستمرة ، تآكلت قوة الاحتلال الفرنسى ، حتى أرغمت فى النهاية على الجلاء عن مصر ، خلال جهد عثمانى انجليزى مشترك(٢٤) .

وقد أعقب خروج الفرنسيين من مصر ، صراع عنيف على مستقبل السلطة فى مصر ، **فالعثمانيون** يحاولون العودة بالأوضاع الى ما كانت عليه قبل الحملة الفرنسية ، وتشديد قبضتهم على البلاد ، متجاهلين كل المتغيرات ، خلال فترة الاحتلال الفرنسى ، وفى هذه المحاولة كان العثمانيون يعتمدون على قواتهم الموجودة فى مصر ، والتى شاركت فى طرد الفرنسيين ، بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، وعلى أســــطولهم المرابط فى المياه المصرية ، بقيادة القبطان حسن باشا ، وبلغ مجموع هذه القوة حوالى ٣٠ ألف جندى .

وكان **المماليك** الذين ضعفت قوتهم خلال معارك الحملة ، يطمحون بدورهم فى العـــودة بالأوضـــــاع الى ما كانت عليه ، باعتبارهم حكام البلاد المحليين ، وقد اصطدمت هذه الرغبة بأهداف العثمانيين ، الرامية الى التخلص من المماليك ، ومن ثم راح بعضهم يتحالف مع الانجليز ، وعلى رأس هذا الجناح الألفى ، والبعض الآخر مع الفرنسيين بقيادة البرديسى .

أما **الانجليز** الذين شاركوا فى طرد الفرنسيين ، بقوة تصل الى ٢٠ الف جندى ، بقيادة الجنرال هتشنسون ، هؤلاء أخذوا يتلكأون فى الخروج ، تحدوهم الرغبة فى استمرار قواتهم بمصر ، حتى تنجلى الأمور ، واستطاعوا بالفعل استمالة جناح من المماليك، للارتكاز عليه فى مصر ، وكان البريطانيون يرون أن المماليك وحدهم هم القادرون على الدفاع عن مصر فى مواجهة الأطماع الفرنسية ، ومن ثم نشطت الدبلوماسية البريطانية خلال تلك الفترة من أجل الوصول الى اتفاق سلمى بين المماليك والباب العالى ، لكن الأتراك كانوا مصممين على القضاء على المماليك ، ومن ثم رفض العثمانيون كل هذه العروض ، وكان ذلك يحدث حتى بعد أن انسحب البريطانيون من مصر ، بمقتضى صلح أميان (١٨٠٢)، الذى أنهى مرحلة من الحرب فى أوربا .

وكان **الفرنسيون** الذين أرغموا على الجلاء عن مصر ، يطمعون فى العودة اليها . خصوصا أن الصراع لم يكن قد حسم بعد ، واستطاع الفرنسيون بدورهم استمالة جناح آخر من المماليك ، بقيادة البرديسى(٢٥) .

ثم هناك قوة **الطبقة الوسطى** بقيادة علماء الأزهر ، ومن ورائهم جماهير القاهرة ، من العامة وفقراء المدينة ، وهى الفئات التى لعبت دورا واضحا فى ثورات القاهرة ضد الفرنسيين ، وسوف يتعاظم دورها خلال الفترة التالية ، وفى وصول محمد على الى السلطة(٢٦) .

وكان محمد على قد حضر الى مصر ضمن القوة العثمانية ، التى شاركت فى طرد الفرنسيين ، تحت قيادة طاهر باشا قائد الفرقة الألبانية ، وقد بدأ الصراع الذى انتهى بوصول محمد على الى السلطة ، عندما حاول الوالى خسرو باشا ، الذى عينه

العثمانيون عقب رحيل الفرنسيين ، التخلص من القوة الالبانية ، لكن هؤلاء ثاروا عليه ، وارغموه على الفرار من القاهرة ، ومن ثم نادى الجند الألبان بقائدهم طاهر باشا واليا على مصر خلفا لخسرو (مايو ١٨٠٣) ، لكن طاهر باشا عجز عن دفع مرتبات هؤلاء الجند ، فثاروا عليه وقتلوه فى نفس الشهر ، وعقب مقتل طاهر باشا ، عين الباب العالى واليا عثمانيا جديدا ، هو على باشا الجزايرلى ، الذى وصـــل على رأس قوة من الجند قوامها ١٥٠٠ رجل ، احتل بها الاســكندرية ، وفى هذه الظروف كان أصحاب القوة الحقيقية فى مصر هم المماليك ، ومحمد على الذى رأى التحالف مرحليا مع المماليك ، للتخلص من الوالى العثمانى ، وبالفعل تمكن هذا التحالف من القضاء على الجزايرلى وقتله ، عندما علموا بعزمه على الحضور الى القاهرة .

غير أن الصراع مالبث أن احتدم بين جناحى المماليك بعد عودة الألفى ، الذى كان قد سافر الى لندن فى عام ١٨٠٣ ، وفى هذا الصراع تمكن البرديسى من الانفراد بالسلطة لبعض الوقت ، واشتط فى جمع الضرائب ، فثار عليه القاهريون فى ٨ مارس ١٨٠٤ ، وقد ساعدت هذه الظروف محمد على على توجيه ضربة للمماليك ، واستطاع التخلص من ٣٥٠ من قياداتهم ، فيما عرف بانقلاب مارس ١٨٠٤ ، وفى هذه الظروف تم تعيين خورشيد باشا حاكم الاسكندرية واليا على مصـــر ، وكنتيجة لخلو الخزانة من الأموال ، شرع خورشيد فى فرض ضرائب جديدة ، كما استقدم قوات من الدلاة للاستعانة بهم فى مواجهة قوات محمد على ، ودخل هؤلاء القاهرة فى نهاية فبراير ١٨٠٥ ، وعـــــاثوا فى القاهرة وضواحيها فسادا ، وفى ذلك الوقت كان محمد على يقاتل قوات المماليك فى صعيد مصر ، فعاد مسرعا لمواجهة الموقف الجديد ، الناجم عن وصول هذه القوات واستفزازاتها ، وفور وصـــوله

شرع محمد على فى التدخل فى الموقف المتفجر ، مستغلا ثورة القاهرة ضد خورشيد ، التى بدأت فى أوائل مايو بسبب الضرائب التى فرضها خورشيد ، وبسبب تسلط الدلاة ، وكان محمد على قد استطاع خلال الفترة السابقة توطيد علاقته بعلماء الأزهر ، والحركة المناهضة لتسلط الولاة ، وكانت هذه الحركة بزعامة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، وفى هذه الظروف اتجهت الأنظار الى محمد على ، بعد أن رأت هذه الحركة فيه الشخص القادر على مواجهة الأوضاع المتردية ، وعندما حاول خورشيد التخلص من محمد على ، بنقله الى جدة ، ثارت جماهير القاهرة ، والتفت حول محمد على ، وحاصرت خورشيد فى القلعة ، التى ظل سجينا بها حتى صدر فرمان من الباب العالى بعزله ، وتولية محمد على فى ٩ يوليو ١٨٠٥ ، تحت ضغط ثورة جماهير القاهرة وقيادتها ، التى كانت تطمح أن يحكم محمد على من خلال مشورة العلماء(٢٧) .

وبوصول محمد على الى السلطة ، تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ مصر ، لعل أبرزها التغيرات التى حدثت فى البناء الاقتصادى والاجتماعى ، وان كانت هذه التغيرات قد وجدت أصولها فى الفترة السابقة على حكم محمد على .

الواقع الاقتصـادى والاجتمـاعى

مع بداية العصـور الحديثة ، دخلت القوى الاسـلامية فى الشـرق الأدنى فى صـراع ، مع طلائع القوى الأوربية من البرتغاليين ، الذين وصلوا الى البحار الشـرقية حول التجارة العالمية ، وقد اسفرت هذه المرحلة من الصـراع ، عن تدهور واضـح فى تجارة العبور ، التى كانت تأخذ طريقها عبر البحر الأحمر الى موانىء مصر والشام ، وكانت تجارة البحر الأحمر خلال تلك الفترة تأتى من مصدرين :

المصدر الأول : هو الهند والشـرق الأقصى ، حيث تأتى التوابل ، التى زادت أهميتها بالنسبة لأوربا فى نهاية العصـور الوسطى .

المصدر الثانى : هو منتجات البلاد الواقعة على شـواطىء البحر الأحمر(٢٨) .

واذا كانت تجارة التوابل قد تأثرت بشكل واضح من جراء هذه التطورات ، فان منتجات البلاد الواقعة على جوانب البحر الأحمر ، قد استمرت تشكل جزءا من تجارته .

ومع الوقت اصبحت مصر مركزا لهذه التجارة ، التى أخذت فى الازدهار ، بين عالم البحر الأحمر وبلاد البحر المتوسـط ،

مستفيدة من الوحدة السياسية التى حققها العثمانيون في المنطقة ؛ وأصبح البن سلعة رئيسية فى هذه التجارة فى أواخر القرن السابع عشر .

وعلى ذلك ، فانه فى ظل النظام الاقتصادى العثمانى ، أصبح لمصر وظيفتان : **الأولى** : هى توريد المواد الغذائية ، وبعض المواد الخام ، لمناطق واسعة من الدولة العثمانية ، و**الأخرى** : هى أن مصر أصبحت حلقة مهمة فى تجارة العبور ، بين آسيا وجزيرة العرب وبلاد البحر الأحمر من جهة ، وبلاد البحر المتوسط وأوربا من جهة أخرى(٢٩) .

وتدريجا أصبحت الأموال التى تحصل عليها مصر من تجارة العبور ، سببا فى قوة المماليك ، وفى تكوين طبقة تجارية خاصة .

وتشير المصادر الى أن الاستثمار فى تجارة البن خلال تلك الفترة ، كان يعطى ربحا يصل الى ٣٣٪ ، كما كانت تجارة العبور فى مجموعها تمثل ٢٥٪ من مجموع تجارة الواردات فى مصر ، و ٤٠٪ من تجارة الصادرات ، وكان ٢٨٪ من تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى يعاد تصديرها من مصر ، وفى مقدمتها البن والملابس الهندية ، وتقدر بعض المصادر أن دخل الحكومة فى مصر من هذه التجارة كان يصل الى ٥٠٪ من مجموع دخلها ، وقد بلغت تجارة البن ذروتها خلال الفترة ما بين ١٦٩٠ و ١٧٢٥ ، وقد برزت أسماء بعض كبار التجار خلال تلك الفترة(٣٠) .

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كان النشاط التجارى فى مصر ، تقوم به عناصر من المسيحيين السوريين والأرمن بوجه خاص ، وقد اتسع دور هذه العناصر فى التجارة الداخلية والخارجية ، وساعد على ذلك عاملان :

العامل الأول : سوء استعمال الامتيازات التى كانت تخول لقناصل الدول الأجنبية منح براءات للسكان المحليين ، يحصلون بمقتضاها على الجنسية الأوربية ، وبالتالى كان لهم الحق فى المزايا ، التى كانت تمنحها الامتيازات الأجنبية للتجار الأوربيين ، خاصة الخفض النسبى للرسوم المفروضة على وارداتهم وصادراتهم وبذلك أمكنهم أن يعرضوا أسعارا أقل من تلك التى كان يمكن أن يعرضها منافسوهم من رعايا الدولة العثمانية ، الأمر الذى مكن التجار الشوام والأرمن من أن يجعلوا السوق فى وضع شبه احتكارى ، فيما يتعلق بتجارة الجملة داخل الدولة العثمانية فى نهاية القرن الثامن عشر .

أما **العامل الآخر** : الذى أدى الى تركيز التجارة المصرية فى أيدى السوريين المسيحيين ، فهو الطرد المفاجىء لليهود من المراكز التى كانوا يشغلونها فى الادارة المالية فى مصر وجنوب سوريا فى أوائل الستينات من القرن الثامن عشر ، فى عهد على بك الكبير ، الذى أسند ادارة الجمارك فى مصر الى السورى حنا فخر . •

بذلك سيطر السوريون على أحد المراكز الرئيسية ، التى تتحكم فى التجارة ، الأمر الذى أدى الى تزايد أعداد التجار السوريين المسيحيين .

وفى نفس الوقت ، فقد شهد عهد على بك الكبير محاولة لاعادة فتح طريق السويس أمام التجارة الانجليزية — كما سبق أن أشرنا — وكان ذلك بناء على نصيحة التاجر الايطالى (البندقى) كارل روزيتى ، وكان روزيتى يدرس أوضاع التجارة الداخلية فى نفس الوقت ، مستعينا فى ذلك بالنفوذ الذى حصل عليه لدى البكوات المماليك ، وبالفعل نجده قبل نهاية العصر المملوكى قد أخذ يتدخل فى هذه التجارة لمصلحته الخاصة ، حتى استطاع الحصول على حق احتكار استيراد السنامكى(٣١) .

وثمة ظاهرة يمكن رصدها فى الحياة الاقتصادية المصرية خلال تلك الفترة (النصف الثانى من القرن الثامن عشر) ، وهى تطور علاقة الريف بالمدينة ، التى يمكن ملاحظتها فى صناعة النسيج ، ذلك أنه على الرغم من ان نظام الصناعة فى مصر فى القرن الثامن عشر ، كان يقوم على الوحدات الانتاجية الصغيرة ، التى تنتج حسب الطلب ، ويزودها العملاء بالمواد الأولية أحيانا ، وعلى الرغم من ذلك أخذت عناصر من الراسمالية التجارية طريقها الى هذه الصناعات ، عندما أصبح كبار التجار فى المدن يقومون بتمويل بعض الصناعات فى الريف ، وتشغيل الصناع لحسابهم ، مع تزويدهم بالأدوات والمواد الأولية ، وكان هؤلاء الصناع ينتجون حسب المواصفات التى يضعها التجار(٣٢) .

ويفهم من كتابات المعاصرين ، أن كبار تجار العاصمة كانوا يستوردون القطن من سوريا ، ويوزعونه على النساء فى الريف ، لغزله فى منازلهن فى أوقات الفراغ ، ثم ترسل خيوط الغزل الى النساجين والى المصانع ، تحت اشراف هؤلاء التجار ، وكانت السلع تعرض فى الأسواق الأسبوعية فى القرى ، وفى الأسواق التى كانت تعقد ايان الأعياد والموالد ، وفى متاجر المدن ، وفى مراكز صناعة النسيج فى الوجه القبلى كان النساجون يرسلون القطن الخام ، الذى يحصلون عليه من سوريا الى النساء فى القرى المجاورة للمدن ، خاصة قنا وقوص ، لغزله(٣٣) .

وعلى ذلك ففى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كانت علاقة الريف بالمدينة آخذة فى النمو ، من خلال العلاقات المتشابكة ، التى أوجدتها صناعة النسيج ، وكذلك من خلال الأسواق التى كانت تعقد فى المدن(٣٤) .

وكانت القاهرة أكبر المراكز التجارية فى مصر ، ولها ميناءان نهريان ، أحدهما فى مصر القديمة ، والآخر فى بولاق ، وفى الدلتا كانت طنطا أهم المراكز التجارية ، وكان يقام بها سوق سنوى ، تجتمع به أعداد كبيرة من التجار والمشترين من كل أقاليم مصر ، حيث تباع المنسوجات ، وكافة السلع ، كما كانت المحلة الكبرى مركزا لصناعة وبيع المنسوجات ، كما كانت المنصورة وسمنود من المراكز التجارية المهمة .

وكانت الشيلان والمنسوجات الراقية ، تجد طريقها للتصدير من مينائى رشيد ودمياط ، كما كانت الأقمشة الصوفية والشيلان تصدر الى دارفور وسنار وكردفان بطريق القوافل ، وقد تخصصت بعض بلاد الوجه البحرى فى انتاج أنواع من الأقمشة ، كانت تصدر الى سوريا(٣٥) .

وفيما يتعلق بأسواق المدن فى صعيد مصر ، تشير المصادر الى أن مدينة اسنا كانت فى نهاية القرن الثامن عشر سوقا رئيسية فى الصعيد الأعلى ، وفى سوقها الأسبوعى كان الفلاحون يبيعون ما يزيد على حاجتهم من القمح والحبوب والخضراوات والدواجن والصوف الخام والقطن المغزول ، ويشترون مقابل ذلك السلع المصنوعة محليا والأوانى والصابون والأرز الوارد من القاهرة .

وفى هذه السوق كانت تباع المنسوجات القطنية والكتانية وبعض الملابس المصنوعة من الجوخ ، كما يجلب البدو الى سوق اسنا الصمغ ، الذى كانوا يجمعونه من أشجار السنط ، وكذلك الفحم المصنوع من خشب هذه الأشجار ، ويقوم تجار اسنا بنقله عن طريق النهر الى القاهرة والمدن الأخرى ، وخلال تلك الفترة أصبحت اسنا مستودعا للسلع الواردة بالقوافل من السودان ، والسلع الأوربية الواردة عن طريق القاهرة الى الصعيد ، كما

كانت أسيوط مركزا تجاريا هاما لتسويق السلع الواردة من السودان ، بعد استهلاك بعضها فى الأسواق والمراكز التجارية فى الصعيد الأعلى ، فى مقابل ما كانت ترسله القاهرة الى هذه المناطق ، من السلع والمنسوجات ، وقد عمل النيل كطريق أكثر أمنا فى ربط هذه المراكز بعضها ببعض ، وكذلك تنشيط التجارة الخارجية(٣٦) .

وعلى الرغم من هذا ، فقد بالغ البعض فى القول بوجود تطور رأسمالى فى مصر خلال تلك الفترة(٣٧) ، ذلك أن هذا التطور كانت تحد منه عدة عوامل :

اولا : اختلال نظام النقد :

وعدم ثبات قيمة العملة ، فلا يكاد يمر عام دون حدوث تغيير فى قيمة العملة ، أو الغاء عملة ، وسك عملة جديدة ، الى جانب استخدام العديد من العملات الأوربية فى السوق المصرية ، وهذه كانت تختلف من حيث القيمة والوزن ، فالى جانب النقود العثمانية المتداولة ، عرفت مصر عددا من العملات الذهبية والفضية ، مثل البندقي نسبة الى البندقية ، وهو عملة ذهبية ، والريالات الفضية الهولندية والأسبانية والنمساوية ، التى اطلق عليها العامة تسميات محلية ، فالريال الأسبانى كان يطلق عليه أبو مدفع ، والريال النمساوى أبو طيرة ، نسبة الى النسر النمساوى شعار الهابسبورج المنقوش عليه ، كما كان يطلق عليه فى بعض الأحيان أبو طاقية ، وكذلك كان يطلق على الريال الهولندى أبو كلب ، نظرا لصورة الأسد المرسومة على أحد وجهيه(٣٨) .

ويبدو أن النقد الأجنبى كان موضع احترام المصريين فى ذلك الوقت ، يفهم ذلك من تعليق الجبرتى على أحداث عام ١٢٢٠ هـ

(١٨٠٦ م) ، حيث يقول « عز وجو دالفرانسة لرغبة الناس فيه ولسلامته من الغش والنقص ، لأن جميع معاملة الكفار سليمة من الغش والنقص بخلاف معاملة المسلمين ، فان الغالب على جميعها الزيف والخلط والغش والنقص »(٣٩) .

ثانيا : التهديد المستمر للطرق والأسواق :

الذى كان يأتى من أكثر من مصدر ، فالمماليك والبدو وقطاع الطرق المحترفون ، كل هذه العناصر كانت تعوق حركة التبادل بين الريف والمدينة ، لدرجة أن القاهرة التى كانت تحصل على غذائها من فائض القمح فى الوجه القبلى ، تصـــبح مهددة بالمجاعة فى بعض الأوقات ، وهى ظاهرة تعرض لها الجـبرتى فى أكثر من موضع(٤٠) ، كما أوضح الجبرتى أن التهديد المستمر للأسواق ، كان السبب فى ارتفاع اسعار بعض السلع فى المدن الكبرى ، فهو يذكر أن تهديد سوق امبابة ، كان سببا فى ارتفاع الأسعار فى مدينة القاهرة عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) ، لأن الفلاحين امتنعوا عن التردد على سوق امبابة ، وكانوا يحاولون تهريب منتجاتهم الى المدينة خفية(٤١) .

وظاهرة تهديد الطرق ، يبدو انها كانت مستمرة منذ فترة ، فالرحالة الانجليزى فانسلب ، الذى زار مصر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، أشار الى التهديد الذى كانت تعانى منه الطرق من اللصوص المحترفين ، وعناصر البدو ، ومن عناصـــر السلطة المملوكية من الكشاف الذين كانوا يعيشون على الابتزاز والاغتصاب وقطع الطريق فى بعض الأحيان ، ويقول انه من أجل زيارة الفيوم ، اضطر الى الإنتظار الى شهر يوليو ، حيث يقوم التجار ومنتجو العنب بنقله فى جماعات لتسويقه بالقاهرة ، وحيث يتراجع عناصر البدو الى الصحراء(٤٢) .

ثالثا : القلق السياسى الذى عاشته المدينة :

الذى أصبح طابع الحياة اليومية فى القاهرة ، وغيرها من المدن الكبرى ، وهى حقيقة أشار اليها الجبرتى فى أكثر من موضع، فهو يعلق على حوادث عام ١١٩٨ هـ (١٧٨٣/١٧٨٤ م) ، بقوله : « وانقضت تلك السنة كالتى قبلها ، فى الشدة والغلاء وقصور النيل والفتن المستمرة ، وتواتر المصادرات ، والمظالم من الأمراء ، وتوالى طلب السلف من تجار البن والبهار ، ومن المكوسات المستقبلية ، ولما تحقق التجار عدم الرد استعاضوا خسارتهم من زيادة الأسعار ، هذا والغلاء مستمر ، والأسعار فى الشدة ، وعز الدرهم والدينار من أيدى الناس »(٤٣) .

ولم تكن المدن الاقليمية بعيدة عن مثل القلاقل والتعديات ، فالجبرتى يذكر ضمن أحداث عام ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥ / ١٧٨٦ م) « اجتمع الناس بطندتا (طنطا) لعمل مولد سيدى أحمد البدوى المعتاد ، وحضر كاشف الغربية والمنوفية على جارى العادة ، وكاشف الغربية من طرف ابراهيم بك ، فحصل منه عسف ، وجعل على كل جمل يباع فى سوق المولد ريال فرانسة » ، ويقول الجبرتى : « ان أعوان كاشف الغربية قد اغاروا على بعض الأشراف ، الذين يحضرون المولد ، الأمر الذى تطور الى اشتباك بين العامة وجنود الكاشف وأعوانه ، وهاجت الناس ، ووقع النهب فى الخيام وفى البلد ، ونهبت عدة دكاكين »(٤٤) .

رابعا : تدهور تجارة البن :

التى كانت تمثل نسبة كبيرة من تجارة العبور ، بسبب منافسة البن الذى أصبح ينتج فى جزر الكاريبى ، وهى المنافسة التى اصبحت واضحة ابتداء من عام ١٧٣٠ ، وقد أدت هذه

المنافسة الى انخفاض مبيعات البن اليمنى ، كما انخفضت أرباحه، الأمر الذى جعل تجار البن يفكرون فى ارتياد مجـالات أخرى ، لاستثمار أموالهم ، تكون أكثر آدرارا للربح ، ومنها حيازة الالتزامات فى الأرض الزراعية .

والحقيقة أن المنافسة خلال تلك الفترة لم تكن مقصورة على تجارة البن وحده ، بل امتدت الى سلع أخرى أثرت على حجم تجارة مصر الخارجية(٤٥) .

هذه العوامل أثرت على النمو الاقتصادى فى مصر بشكل عام خلال تلك الفترة ، وعلى الرغم من ذلك فان هذا التطـور الاقتصادى ساهم فى وجود قدر من الحراك الاجتماعى ، وبالتالى أصبح من الممكن تحديد ملامح طبقة وسطى ، تتكون من التجار وكبار الحرفيين والعلماء ، بينما انضمت عناصر من كبار التجار الى الطبقة العليا أو الصفوة من الأتراك والمماليك ، كما شهد الريف قدرا من التمايز الاجتماعى ، بحيث أصبح من الممكن التعرف على طبقة من أعيان القرى ، استفادت بدورها من هذه التطورات .

البنــاء الطبقى :

فى بداية العصر العثمانى ، كان التقسيم الطبقى فى مصر ، يتفق فى بعض جوانبه مع التقسيم العرفى للسـكان ، فالطبقة العليا فى المجتمع كانت تتكون بشكل عام من الأتراك والمماليك ، بينما تتكون قاعدة الهرم الاجتماعى فى الريف والمدينة من الحرفيين والزراع وأصحاب المهن من المصـريين (أولاد العرب) ، لكن التطورات التى شهدتها الفترة الأخيرة من العصـر العثمانى ، أوجدت قدرا من الحراك الاجتماعى ، أصبح معه من الممكن التعرف على ملامح طبقة وسطى ، تتكون من التجار والعلماء وأصحاب

الحرف وأعيان الريف ، وفى قاعدة هذا البناء الطبقى نجد العامة وفقراء المدينة والفلاحين فى الريف ، بينما انضم للصفوة عناصر من كبار التجار(٤٦) ، هذا البناء الطبقى يمكن أن نتعرف على ملامحه على النحو التالى :

الصفوة (الطبقة العليا) :

برز المماليك كصفوة حاكمة ، كنتيجة لاختلال التوازن بين مؤسسات الحكم العثمانى ، بعد سلسلة من الصراعات مع منافسيهم من أفراد الأوجاقات ، الذين انغمسوا فى ممارسة النشاط التجارى والحرفى ، الا ان موقف أفراد الأوجاقات قد ساء الى حد ما ، بسبب انخفاض أسعار البن ابتداء من عام ١٧٣٠ ، فى الوقت الذى كانت فيه ثروة المماليك مرتبطة بحيازة الأرض ، ممثلة فى الالتزامات ، وتقدر هيلين ريفيلين أنه من بين ٦٠٠٠ ملتزم وهم مجموع الملتزمين فى نهاية القرن الثامن عشر ، كان هناك ٣٠٠ ملتزم من المماليك ، يحوزون ثلثى الأراضى الزراعية(٤٧) ، التى زادت قيمتها بسبب ارتفاع أسعار الأرض فى ذلك الوقت .

وقد ساهم فى قوة المماليك خلال تلك الفترة ، تحالفهم مع كبار التجار المصريين والأجانب ، ذلك التحالف الذى أصبح مناوئا للوجود العثمانى نفسه ، وفى نفس الوقت فقد أدى تضاؤل نفوذ الباشوات العثمانيين الى سيطرة المماليك على الادارة ومؤسساتها ، وأبرزها الادارة المالية (الروزنامة) ، بالاضافة الى تغلغل المماليك فى الفرق العثمانية نفسها .

وبعيدا عن الدخل الذى كان يحصل عليه المماليك من وظائفهم، كان فى امكانهم الحصول على دخول اضافية ، من الجبايات

والضرائب غير القانونية ، التى كانوا يحصلون عليها من المنتجين والتجار فى الريف والمدينة(٤٨) .

لقد عاش المماليك كما عاش العثمانيون ، طبقة مترفة ومتميزة، ومنفصلة عن سائر طبقات المجتمع المصرى ، بانفرادها باحتلال المراكز القيادية فى الادارة والجيش ، وفى مكانة أفرادها ، وفى لغة التعبير ، وأسلوب التفكير ، والظواهر السلوكية(٤٩) .

والحقيقة أن المماليك كصفوة حاكمة ، كانوا مستهدفين من قبل السلطة المركزية العثمانية فى نهاية القرن الثامن عشر ، يتضح ذلك من حملة القبطان حسن باشا ، التى حاولت أن تضع حدا لسلطة المماليك فى مصر ، وبمجىء الحملة الفرنسية (١٧٩٨) سقطت الصفوة الحاكمة من الأتراك والمماليك ، وحلت محلها سلطة حاكمة ، استعانت ببعض العناصر من الوطنيين ، من العلماء والمسلمين وبعض الأقباط ، وبذلك فقدت الصفوة الملوكية نفوذها ، ومصادر دخلها ، كما تكفلت معارك الحملة بالقضاء على جانب من قوتهم العسكرية ، وعلى ذلك فعقب خروج الفرنسيين من مصر ، كانت المصادر الأساسية لقوة المماليك قد تزعزعت ، وأصبحت بعض مصادر هذه القوة فى أيدى بعض العناصر الوطنية من العلماء ، وعناصر الطبقة الوسطى ، الذين أصبحوا يدركون أن مصلحتهم تتطلبعدم عودة النظام القديم بعناصره من الأتراك والمماليك ، وباتت هذه العناصر الوطنية أكثر تطلعا لنظام جديد(٥٠) .

وهذا يفسر عجز كل من الاتراك والمماليك عن العودة بالأوضاع الى ما كانت عليه قبل الحملة الفرنسية ، كما يفسر أيضا مساندة جماهير القاهرة لمحمد على فى تطلعه للسلطة ،

مستفيداً من ضعف قوى النظام القديم ، الذى تلقى ضربة زعزعت دعائمه السياسية والاقتصادية والعسكرية(٥١) .

ومن جانبهم ، حاول العثمانيون التخلص من المماليك ، فى كل من القاهرة والاسكندرية فى أكتوبر ١٨٠١ ، عقب خروج الفرنسيين، لكن هذه المحاولة لم تنجح ، بسبب تدخل الانجليز ووقوفهم الى جانب المماليك ، كما فشلت مشروعات أخرى تقدم بها العثمانيون ، وحتى وصول محمد على للسلطة (يونيو ١٨٠٥) ، لم تكن نتائج الصراع بين العثمانيين والمماليك قد حسمت(٥٢) .

وكان محمد على هو الذى استطاع التخلص من بعض قيادات المماليك ، فيما عرف بانقلات مارس ١٨٠٤ ، مستغلا ثورة العامة ضد البرديسى ، بسبب الضرائب التى بالغ فى تحصيلها ، وعقب وصوله الى السلطة ، خاض محمد على سلسلة من المعارك ضد المماليك ، انتهت بالقضاء عليهم بشكل حاسم فى مذبحة القلعة عام ١٨١١(٥٣) ، وبذلك اختفى المماليك من مسرح الحياة السياسية والاجتماعية ، وانفتح الطريق لتكوين صفوة من الأتراك والشراكسة من بعض بقايا المماليك .

الطبقة الوسطى من التجار والصناع :

تسبب النشاط الاقتصادى المشار اليه فى وجود طبقة وسطى من التجار والصناع ، وفى اطار هذه الطبقة يمكن أن نميز بين شريحتين ، شريحة عليا من كبار التجار والصناع ، وهذه كانت أكثر اتساعا من تجار البن والتوابل ، وحسب تقديرات أندريه ريمون ــ الباحث الفرنسى ــ كانت ثروة كبار التجار تتراوح ما بين ٥٠ و ٢٠٠ ألف بارة وقد تزيد ، وكان الصناع يشكلون نسبة بسيطة داخل هذه الشريحة ، وكانت العناصر الأكثر غنى من

الصناع هم صناع وتجار السكر وصناع النسيج ، وخاصة الحرايرية منهم ، وفيما يتعلق بكبار التجار ، كان نشاطهم فى اطار التجارة الدولية ، وقد أدى تدهور تجارة البن بعد عام ١٧٣٠ ، الى زيادة عدد تجار المنسوجات بالنسبة لتجار البن والتوابل داخل هذه الشريحة ، وقد لوحظ خلال الفترة ما بين عامى ١٧٧٦ و ١٧٩٨ زيادة عدد التجار الأجانب ، بالقياس الى التجار المحليين بين كبار التجار ، وكانت هذه الزيادة تتصاعد فى الشرائح الأغنى من هؤلاء التجار ، حتى زادت على الضعف بين التجار ، الذين كانت ثروتهم تزيد على ٢٠٠ ألف بارة ، حسب تقديرات أندريه ريمون(٥٤) .

وقد ترجم الجبرتى لعدد من هؤلاء التجار ، الذين كانوا يملكون ثروات هائلة ، زادت فى بعض الأحيان على ١٥ مليون بارة ، من امثال محمود محرم الذى كانت له علاقات تجارية مع الحجاز وبلاد الشام وبلاد الروم ، ومن أمثال عائلة الشرايبى التى ترجم الجبرتى لعدد من أفرادها ، ومن أمثال أحمد العريشى وأخيه من أبيه أحمد ابن عبد السلام ، وهى عائلة ترجع الى أصول مغربية ، وكذلك أحمد المحروقى(٥٥) .

وفضلا عن رأس المال العينى ذى الأهمية المتغيرة ، كان جزء من ثروة هؤلاء التجار يستثمر فى عقارات ثابتة فى المدن ، أو فى ورش صناعية ، ووكائل وخانات وحمامات ، كما امتلك بعضهم سفنا للنقل فى البحر الأحمر ، بالاضافة الى حيازة بعضهم لمساحات من الأراضى الزراعية فى شكل التزامات ، ويفهم ذلك من ترجمة الجبرتى لمحمد دادة الشرايبى ، فعند وفاته قدرت ثروته المنقولة والسائلة بحوالى ١٤٨٠ كيسة (٧٤٠,٠٠٠ بارة) ، بخلاف خان فى الحمزاوى ، وبخلاف الرهن الذى تحت يده من القرى ، ويبلغ

الفائض المتحصل فبها ستين كيسا ، والبلاد التى التزم بها والتى تصل الى ٤٠ كيسا ، بخلاف الوكائل والحمامات وثلاثة مراكب فى بحر القلزم(٥٦) .

وعلى هذا فهناك ما يؤكد أن كبار التجـار قد قاموا بتنويع أنشطتهم الاقتصادية ، كما ارتبط بعضهم بالفئات الحاكمة ، عن طريق الزواج ، أو عن طريق المعاملات المالية ، حيث كانت السيولة النقدية عند المماليك غالبا ما تحل عن طـريق القروض من كبار التجار ، الذين كانت معاملاتهم التجارية الواسعة تحقق لهم قدرا من السيولة النقدية ، وبسبب ذلك انتقلت بعض الالتزامات فى الأراضى الزراعية الى هؤلاء التجار .

وعلى ذلك مثل كبار التجار جزءا من الصفوة الحاكمة ، بعد أن دخلوا فى علاقات مصـاهرة مع المماليك ، وكانوا بعيدا عن المصادرات التى تعرض لها صغار التجار ، كما كانوا وراء مشروعات على بك الكبير ، الرامية الى توسيع نطاق تجارة البحر الأحمر ، وحملته على الحجاز(٥٧) .

وعلى هذا يمكن التمييز بين هذه الفئة ، والشرائح الأقل من التجار والصناع ، الذين كانت ثرواتهم تتراوح بين ٥٠٠٠ بارة و ٥٠٫٠٠٠ بارة ، وهم الذين يعتبرهم البعض أكثر تمثيلا لهذه الطبقة ، فقد كانت تتميز عن الشـرائح العليا والدنيا من هذه الطبقة بميزتين : **الأولى** : التفوق الكبير فى عدد التجار على عدد الصناع ، **والثانية** : الدور المتواضـع الذى كانت تلعبه التجارة الدولية ، وخاصة تجارة البن والتوابل فى دخل هذه الطبقة ، وقد تنوعت الأنشطة الاقتصادية لهذه الفئة ، فمن بين الصناع سنجد المهن الأكثر شراء ، مثل صناع السكر والطحانين وعاصـرى الزيوت ، كما يتفوق بداخلها صناع النسيج من حيث العدد ، على

صناع المواد الغذائية ، خلال الفترة ما بين عامى ١٧٧٦ و ١٧٩٨ ، وخاصة نساجى الحرير والخياطين ، ما صناع الجلود وصناع المعادن فان نسبتهم أقل ، وعلى العكس من ذلك نجد صناع المعادن النفيسة والصاغة ترد اعداد كبيرة منهم فى وثائق القرن الثامن عشــــر .

وفيما يتعلق بالتجار ، نجد أن تجارة المنسوجات تتفوق على غيرها من أنواع التجارة ، وتأتى تجارة المواد الغذائية فى المرتبة التالية ، والســمة الأخــيرة المميزة لهذه الفئة الاجتماعية ، هى الأهمية النسبية لأنشطة الخدمات ، وكانت شياخة الطوائف تتركز فى هذه الشريحة من التجار والصناع المتوسطين(٥٨) . ويوجد ضمن هذه الطبقة تجار التوابل وتجار البن وتجار النسيج وتجار الأسواق الكبرى بالقاهرة ، وكان هؤلاء التجار وأصحاب الحرف الأكثر ازدهارا مثل الحرايرية الذين أطلق عليهم الجبرتى أصحاب الحرف المعتبرة فى أحداث عام ١٨٠٢(٥٩) . كانوا يشكلون فئة اجتماعية متماسكة ، كما كانت مصالحها متقاربة لدرجة يمكن معها التعرف على سلوكها السياسى فى وقت الأزمات الكبرى ، التى شهدتها القاهرة فى عام ١٧٨٦ ، وابان الاحتلال الفرنسى ، وفى أحداث عام ١٨٠٥(٦٠) .

وكانت الشريحة المقابلة من الصناع ، هم أصحاب الحرف ، وكان عددهم فى القاهرة يصل الى خمسة آلاف من مجموع العمال ، الذين قدر عددهم بخمسة وعشــرين ألفا مع نهاية القرن الثامن عشر ، والذين شكلوا الشــــريحة الدنيا أو الفقيرة من الطبقة الوسطى(٦١) .

وقد ترجم الجبرتى لبعض الحرفيين البارزين فى عصره ، من أمثال الأسطى ابراهيم السكاكينى ، صانع السكاكين والسيوف،

والذى يقول عنه الجبرتى أنه كان يجيد سقى الأسلحة ، ويطعمها بالذهب والفضة ، ويقول انه كان خطاطا أيضا ، وانه كتب بخطه كثيرا من الكتب الأدبية ومقامات الحريرى(٦٢) .

كما ترجم الجبرتى أيضا للشيخ مصطفى بن جاد ، الذى كان يعمل فى تجليد الكتب ، ويقول عنه الجبرتى انه ولد بالقاهرة بعمارة قايتباى ، وعمل فى صناعة وتجليد الكتب وتذهيبها ، وأنه تتلمذ فى ذلك على الأسطى أحمد الدقدوسى ، ومهر فى هذه الحرفة وفاق أستاذه ، وأدرك دقائق الصنعة ، وعمل النقوش الذهبية والجداول ، وانفرد بدقة الصنعة بعد موت كبار الصناع مثل الدقدوسى وعثمان أفندى بن عبد الله والشيخ محمد الشناوى من العاملين فى تجليد الكتب(٦٣) .

وكانت الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى ، تتركز فى حرف تكرير السكر وصناعة النحاس وأعمال النجارة .

وكان المغاربة يشكلون جزءا من هذه الطبقة فى مدينة القاهرة ، بعد أن استعان بهم المماليك كمرتزقة ، بينما كان جزء صغير من المغاربة يمثلون جزءا من الصفوة التجارية ، التى ظلت قائمة حتى عصر محمد على(٦٤) .

وقد عانت هذه الشريحة من الابتزاز والقروض الجبرية ، التى كان يمارسها المماليك ، حتى أصبحت فى موقف حرج ، ومعرضة لأن تصبح فى عداد العامة أو الطبقة الدنيا ، أو يهجر حرفته الى حرفة أخرى ، كما عانت من القلق الذى عاشته المدينة المصرية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، بسبب الفتن والاضطرابات التى شهدتها البلاد ، وخلال الغزو الفرنسى(٦٥) .

وكانت هذه الشريحة أكثر شرائح الطبقة الوسطى وعيا ، على الرغم من فقرها .

وكان الجزء الأكبر من الصناع والتجار ، يمارسون نشاطهم المهنى فى مدينة القاهرة ، خاصة فى الأحياء التجارية الكبرى ، مثل الحمزاوى والفورية والجمالية وخان الخليلى .

وكانت الأحياء الجنوبية من القاهرة ، لا تضم الا ٤ر٢٦٪ من اجمالى الصناع والتجار المتوسطين ، خلال الفترة ما بين عامى ١٧٧٦ و ١٧٩٨ ، اما الاحياء الغربية من المدينة فكانت تضم ٥ر١١٪ خلال تلك الفترة .

وكانت الحياة اليومية لهؤلاء التجار ، تسير وفق ايقاع ثابت، يتمثل فى التنقل بين المحل والمنزل ، فالتاجر الذى يملك محلا فى الشارع أو الخان ، كان يهتم بتجارته خلال النهار ، حيث يذهب الى محله فى الصباح ، ويغلقه فى المساء مع غروب الشمس ، وهو الوقت الذى يذهب فيه الناس للصلاة والعشاء والعلاقات الاجتماعية ، وكان منزل التاجر منفصلا عن المحل ، وفى مكان بعيد عن المحل أحيانا .

ويقدم أندريه ريمون من خلال وثائق المحكمة الشرعية ، بعض المعلومات عن مستوى معيشة هؤلاء التجار(٦٦) .

ومن الصعب تحديد الى أى مدى عانت هذه الفئة من تضاؤل الأهمية الاقتصادية لمدينة القاهرة ، بعد أن لجأ كبار المماليك وأثرياء التجار الى استثمار أموالهم فى الالتزام وحيازة الأرض الزراعية ، على الرغم من القول بأن أغلبية الطبقة الوسطى من التجار والعلماء ظلوا يعتمدون على القاهرة كمركز للنشاط الاقتصادى(٦٧)، ويدخل فى نسيج الطبقة الوسطى العلماء والفقهاء ومشايخ الأزهر

وأصحاب الوظائف الدينية ، وقد تحدد وضع العلماء ومشايخ الأزهر فى اطار هذه الطبقة من خلال وضعهم الاقتصادى ، ومن خلال الدور العام الذى لعبوه فى أحداث تلك الفترة .

وفيما يتعلق بثروة العلماء يمكن أن نحدد لها ثلاثة مصادر ، أولها شغل الوظائف الدينية ، وكذلك الاستفادة من الأوقاف التى اتسعت بشكل واضح خلال تلك الفترة ، بسبب القلاقل السياسية، وقد عمل بعض هؤلاء العلماء نظارا للوقف ، واخيرا حيازة الالتزامات الزراعية ، ومن العلماء الذين كان فى حيازتهم التزامات الشيخ السادات والشيخ المهدى ، حتى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، هذا الى جانب تمتعهم ببعض الاعفاء الضريبى ، تحت اسم مسموح العلماء ، كما عمل بعضهم كتجار ، وعلى ذلك فقد تعددت أنشطة بعض العلماء الاقتصادية ، والنموذج الواضح لذلك هو الشيخ المهدى ، الذى عمل بأنشطة اقتصادية مختلفة ، وتاجر فى سلع ومحاصيل مختلفة(٦٨) .

وكان بعض افراد أهل الذمة ، من الأقباط والشوام والأرمن واليهود ، ينتمون الى هذه الطبقة ، كما يمكن أن يضاف اليها الموظفون الذين كانت حياتهم ترتبط بجهاز الدولة بشكل أو بآخر ، مثل الكتبة وموظفى الضربخانة وافندية الروزنامة ، وكانت بعض هذه الوظائف تورث ، وقد ترجم الجبرتى لبعض هؤلاء الموظفين(٦٩) .

وخلال الحملة الفرنسية ، شهدت هذه الفئات قدرا من الحراك الاجتماعى ، صعودا وهبوطا ، بسبب تعرض بعض هذه الفئات للغرامات والمصادرات ، وتحول بعض مساتير الناس الى فقراء ، وبسبب الحصار الاقتصادى الذى فرضه الأسطول الانجليزى على الشواطىء المصرية ، والذى كانت له آثاره على التجارة ، كما

ارتفعت منزلة أهل الذمة من الاقباط والشـوام والأروام ، الذين استعان بهم الفرنسيون فى بعض المجالات ، وكذلك العلماء الذين حل بعضهم محل الأتراك فى بعض الوظائف الدينية العليا(٧٠) .

كذلك فقد لاحظ الجبرتى التغييرات التى طرأت على تركيب الطبقة الوسطى ، مع بداية عصر محمد على ، حيث أصبح الشوام والأرمن واليونانيون من بين نسـيجها ، ففى يومياته عن عام ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) . يقول الجبرتى « وفتح بابه (يقصد محمد على) لنصارى الأروام والأرمن ، فترأسوا وعلت أسافلهم ، ولبسوا الملابس الفاخرة ، وركبوا البغال والرهوانات ، وأخـذوا بيوت الأعيان التى بمصر القديمة ، وعمروها وزخرفوها ، وعملوا فيها بساتين وحدائق ، وذلك خلاف البيوت التى لهم بداخل المدينة » ، وبينما كانت هذه العناصر تحتل موقع الصدارة ، تكفلت مشروعات محمد على بتهميش بعض العناصر من أفراد الطبقة الوسطى ، مثل الحاج سالم الجوهرى مباشر ايراد الذهب والفضـة فى الضربخانة ، حيث يقول الجبرتى أن بعض اليهود قد وشوا بالحاج سالم الجوهرى ، فسجنه محمد على هو واخوته ، وباع أملاكه وحصة التزامه ، ونفس الشىء قد حدث لاسماعيل أفندى أمين عيار الضربخانة وأولاده ، الذين باعوا أملاكهم وعقاراتهم وفرشهم ومصاغ حريمهم وأوانيهم . كما استولى محمد على على الدار التى كانوا يملكونها بالقلعة ، مقابل فردة قررها عليهم ، ويقول الجبرتى أن اسماعيل أفندى هذا قد مات مهموما(٧١) .

العـامة (فقـراء المدن) :

فى أسفل الهرم الاجتماعى ، تتحدث المصادر عما يسميه المؤرخون بطبقة العامة ، وهى طبقة غير محددة المعالم فى كتابات الجبرتى ، فالجبرتى يطلق على هذه الطبقة العديد من المسميات ،

فهم فى المفهوم الأوسع العامة ، ثم هم السـوقة ، والزعاع ، والجياع ، وفى بعض الأحيان من لا دين هم ، ثم هم الزعر ، والحرافيش ، والهوام ، والغوغاء ، وأصحاب الحرف الدنيئة ، والجبرتى يشير الى هذه الفئات باستعلاء واضح فى مناسبات مختلفة ، فهو يتحدث عن « هوام العامة » ، و « أوباش الناس » ، عندما يتناول أخبار امرأة تعلقت برجل من المجاذيب ، ثم هو يتحدث عن « الغوغاء » فى أحداث عام ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧ م) ، عندما فرض اسماعيل بك فرضة على العديد من أصحاب الحرف وتجار البن والبهار ، وتحرك العامة والمجاورون فى مواجهة ذلك(٧٢) ، وعندما وصل الفرنسيون الى مشارف القاهرة ، واشتبكوا مع المماليك فى موقعة امبابة ، يقول الجبرتى « ضج العامة والغوغاء من الرعية واخلاط الناس »(٧٣) .

وفى أعقاب معركة امبابة ، وهروب ابراهيم بك ومماليكه الى بلاد الشام ، وفرار مراد بك وأتباعه الى الصـعيد ، يقول الجبرتى أنه فى ذلك اليوم « اجتمعت الجعيدية وأوباش الناس ، ونهبوا بيوت ابراهيم ومراد وبعض الأمراء »(٧٤) . ثم يتحدث الجبرتى عن « السوقة » و « رعاع الناس » ، عندما أشار الى الحوار الذى دار بين بونابرت والعلماء ، وعندما قال العلماء : « ان سوقة مصر لا يخافون الا من الأتراك » . الا أن الجبرتى يستخدم كلمة سوقة بمعنى صغار العامة ، عندما كان يتحدث عن أوضاع القاهرة ، عقب اسـتقرار الفرنسيين بالقاهرة ، حيث يقول : « وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوى »(٧٥) . ثم يتحدث الجبرتى عن « الحشرات » و « الزعر » ، عندما يتناول أعمال العنف والتجاوزات التى حدثت خلال ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨)(٧٦) .

وعلى ضوء ما كتبه الجبرتى ، نستطيع أن نحدد ملامح هذه الطبقة ، على أنها كانت تتكون من أرباب الحرف والباعة المتجولين والحمالين والسقائين والحمارة والقرداتية والحواة ، أو ما يسميها الجبرتى بالحرف الدنيئة ، مثل بيع الفطير وقلى السمك وطبخ الأطعمة(٧٧) . كذلك يمكن التمييز بين هذه الفئات من أصحاب الحرف المتواضعة ، وما يسمى اليوم بالبرجوازية الصغيرة من الحرفيين وتجار التجزئة ، الذين يعملون بانتظام فى أسواق القاهرة ، وهذه الفئة كانت فى وضع أفضل من الفئات السابقة(٧٨) .

كذلك يمكن الحديث فى اطار هذه الطبقة ، عن طبقة كادحة من الفئات التى لا تعيش على أنشطة اقتصادية محددة ، وهذه كانت تضم الخدم والفراشين ، والخدم الخصوصيين الذين يمشون وراء السادة ، والسقائين ومؤجرى الحمير والجمال والخيول والبغال ، وتشير المصادر الى أنه فى عهد على بك الكبير ، كان يوجد فى القاهرة أكثر من ٢٢ الفا من دواب الركوب يتم تأجيرها ، وما يقرب من ٣٠ الف حمار زمن الحملة الفرنسية ، مما يدل على كثرة المشتغلين بهذه الحرفة ، بالاضافة الى ١٥ الفا من عمال اليومية ، حسب تقديرات الحملة الفرنسية(٧٩) .

كذلك يدخل فى تكوين هذه الطبقة ، الكثير من الباعة المتجولين ، وباعة الأطعمة والمواد الغذائية ، ومنهم باعة الخبز والفاكهة والمشروبات على اختلاف أنواعها(٨٠) .

وقد شهد القرن الثامن عشر نموا ملحوظا فى قطاع الخدمات ، الذى كان أفراده يعملون نظير أجور يومية ، ساعد على ذلك نمو الطبقة الوسطى ، التى اشتغلت بالتجارة ، واصبحت فى حاجة متزايدة لعمال الخدمات ، سواء تلك التى تتطلب بعض المهارات ، أو التى لا تحتاج الى مهارات(٨١) .

ويفهم مما كتبه الجبرتى ، أن هذه الفئات لم تكن بعيدة عن العمل سخرة ، فالجبرتى يذكر أن الباشا قد شـرع عقب خروج الفرنسيين فى بناء عمارة ، وأنه استخدم فى عملية حفر الأساس لهذه العمارة أعدادا من القرداتية وأرباب الملاعيب ، وغيرهم من اصـحاب هذه الحرف ، حتى بطل الطبل والزمر ، على حد قول الجبرتى(٨٢) .

وقد عاشت الطبقات الدنيا فى المدن ، فى حارات ضـيقة ، مثل حارة الحسينية ، التى كان اقتصادها يقوم على انتاج المواد الغذائية الأساسية ، والتى كانت عرضة للتذبذبات الاقتصادية ، كتلك التى حدثت فى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما كان المماليك يخزنون الأغذية خارج القاهرة ، ليستفيدوا من ارتفاع أسعارها ، وكانت هذه الفئات تسكن أحواشا فى مناطق وسـط المدينة ، والعطوف والحبالة والخليفة والفوالة وباب اللوق ، كما كانت تتركز فى مناطق أخرى من القاهرة ، مثل المنطقة الواقعة حول مسـجد السلطان حسن ومسجد ابن طولون(٨٣) .

وتبقى هذه الطبقة كما لو كانت خارج التاريخ ، فلا تكتب عنها المصادر المعاصرة ، الا وقت الأزمات ، عندما يتفجر ما لدى هذه الطبقات من غليان مكبوت ، وقراءة تاريخ القاهرة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، تشـير الى العديد من تحركات العامة والطبـقات الدنيا ، كانت تعـبر عن ضيق هذه الفئات بالواقع السياسى والاجتماعى الذى كانت تعيشه البلاد ، ففى محرم ١٢٠٢ هـ (اكتوبر ١٧٨٧ م) ، ثارت طوائف الحرف وجماهير العامة ضـد الفرضة ، التى حاول اسماعيل بك فرضها على التجار وأصحاب الحرف ، وخاصة تجار البن والبهار(٨٤) .

وفى شهر مخرم ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) ، ثار أهل الحسينية على الوالى أحمد أغا ، بسبب كثرة تعديه على أهلها بالحبس والضرب ، ونهب أموالهم وبيوتهم ، وقاد هذه الانتفاضة أحمد سالم الجزار شيخ طائفة البيومية ، واستمرت هذه الانتفاضة من يوم الجمعة ٢٢ محرم الى يوم الثلاثاء ٢ صفر ، وانتهت بعزل الوالى والأغا ، كما يقرر الجبرتى ، وفيها أرغم العامة البكوات المماليك على التراجع والتفاوض مع العلماء ، وعزل الوالى ، وقد بدأت الانتفاضة بمحاولة الوالى القبض على أحمد سالم الجزار ، وخلال هذه الانتفاضة حدث اشتباك بين العامة وحسن بك الجداوى ، وفيه قتل شخصان وجرح عدة أشخاص(٨٥) .

وفى شهر ذى الحجة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٥م) ، شارك العامة فى التحرك الذى بدأه فلاحو قرية بشرقية بلبيس ، حين حضروا الى القاهرة يشتكون من ظلم سلطات المماليك فى الاقليم ، الى الشيخ الشرقاوى ملتزم القرية ، وقد اكتسب هذا التحرك أهمية خاصة ، حيث اعتبر البعض أن الحجة التى وقعها المماليك ، يتعهدون فيها بوقف الظلم والتجاوزات ، وقبول شروط العلماء ، مجناكرتا مصرية (عهد أعظم) ، حسب رواية لويس عوض(٨٦) .

كما وضح دور العامة فى ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنسيين (أكتوبر ١٧٩٨) ، التى بدأت فى شكل تجمهر من العامة ، احتجاجا على الضرائب التى فرضها الفرنسيون ، ثم مالبث أن تحول الى ثورة عامة ، ويفهم مما كتبه الجبرتى ، أن العبء الأكبر فى هذه الثورة قد وقع على العامة(٨٧)

ويفسر محمد أنيس سرعة التحرك فى ثورة القاهرة الأولى ، الى وجود تنظيمات جاهزة للعمل ، لها قيادتها وخطوط اتصالها ،

وفى تنظيمات طوائف الحرف ، وارتباطها بالطرق جعلها قادرة على العمل ، وعلى التعبئة والحشد(٨٨) .

والقراءة المتأنية ليوميات ثورة القاهرة (عام ١٠٨٥) ضد خورشيد ، كما أوردها الجبرتى ، تشير الى أن الثورة بدأت فى شكل تحرك شعبى ، قام به أهالى مصر القديمة فى مواجهة الجند (الدلاة) ، الذين استقدمهم خورشيد من جنوب بلاد الشام ، وكثرت تعدياتهم على الأهالى فى مصر القديمة ، وقد استمرت هذه الثورة حوالى ثلاثة شهور (٥ مايو ــ ٥ أغسطس)(٨٩) .

وقد اتسمت تحركات العامة خلال هذه الثورة ، بقــدر من الوعى ، يفهم ذلك من الحوار الذى أورده الجبرتى على لسان العامة ، عندما مال بعض العلماء للمهادنة وتهدئة الموقف ، بعد صدور فرمان تولية محمد على واليا على مصر ، وطلبوا من العامة التخلى عن سلاحهم فى النهار ، وحمله بالليل لحراسة أخطاطهم ، يقول الجبرتى « فلما سمع الناس ذلك أنكروه ، وقالوا ايش هذا الكلام ، حينئذ نصير طعمة للعسكر بالنهار ، وغفراء بالليل ، والله لن نترك أسلحتنا ، ولا نمتثل لهذا الكلام »(٩٠) .

وقد برزت بعض القيادات الطبيعية من بين العامة ، خلال أحداث الثورة مثل حجاج الخضرى ، الذى لعب دورا واضحا فى قيادة أهالى الرميلة فى حصـــار القلعة ، وأحبط كل المخططات الرامية لفك هذا الحصار ، كما برزت أسماء أخرى مثل اسماعيل جودة وابن شمعة شيخ الجزارين .

والدارس لانتفاضات المدن ، وتحركات العامة ، خلال هذه الفترة ، يستطيع أن يخرج بثلاث نتائج :

١ ــ التحام هذه الفئات بالحياة السياسية ، من ذلك مثلا أنه عندما خرج المماليك لملاقاة جيش بونابرت فى الثالث من صفر

١٢١٣ هـ (يوليو ١٧٩٨م) ، وخرج الناس ليلحقوا بجيش المماليك في بنصب خيام يقيمون فيها ، وقد رتبوا من يصرف عليهم من دراهمهم ، وكذلك الدور الذى لعبه العامة فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية، خلال الاحتلال الفرنسى ، وكذلك هزيمة الحملة الانجليزية عام ١٨٠٧ (٩١) .

٢ ــ أن الطبقة الوسطى كانت دائما تستأثر بقيادة تحركات العامة ، وتستثمر هذه التحركات بالقدر الذى يحقق مصالحها ، فقد كانت تخشى من عنف تحــرك العامة ، يفهم ذلك من تعليق الجبرتى على أحداث ثورة القاهرة الأولى ، حيث يقول « وخرجت العامة عن الحد ، وبالغوا فى القضية بالعكس والضد » ، والضد هنا هو مهاجمة العامة للأملاك الخاصة للأقباط والمسلمين على السواء ، وهو ما كان يفزع قيادات الطبقة الوسطى ، حيث يقول الجبرتى : « وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب ، فهجموا على حارة الجوانية ، ونهبوا دور النصارى والشوام والأروام ، وما جاورهم من بيوت المسلمين »(٩٢) .

وربما يفسر ذلك دور العلماء فى محاولات احتواء انتفاضات العامة خلال تلك الفترة ، ففى انتفاضة عام ١٢٠٩ هـ (١٧٩٥ م) ، التى بدأت بسبب الظلم الذى وقع على الفلاحين ، فى احدى قرى الشرقية ، وتحول الى قلق عام ضد سلطات المماليك ، الأمر الذى طلب معه المماليك التفاوض مع مشايخ الأزهر ، وعندما بدأت هذه المفاوضات ، توجه العلماء وحدهم « ومنعوا العامة من السعى خلفهم » ، كما يقرر الجبرتى(٩٣) .

نفس الدور نجده فى ثورة ١٨٠٥ ، عندما حاول العلمــاء ــ باستثناء السيد عمر مكرم ــ وضع حد للعنف ، والاتجاه نحو التهدئة ، بعد أن صدر الأمر بتولية محمد على ، فالجبرتى يقول :

« وفيه (ربيع الثانى ١٢٢٠ هـ) أجتمع الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وغالب المتعممين ، وقالوا ايش هذا الحال ، وما تداخلنا فى هذا الأمر والفتن ، واتفقوا أنهم يتباعدون عن الفتنة ، وينادون بالأمان ، وأن الناس يفتحون حوانيتهم ، ويجلسون بها ، وكذلك يفتحون أبواب الجامع الأزهر ، ويتعبدون بقراءة الدروس ، وحضور الطلبة ، وركبوا الى محمد على ، وقالوا له أنت صرت حاكم البلدة ، والرعية ليس لهم مقارشة (دخل) فى عزل الباشا ، ونزوله من القلعة ، وقد أتاك الأمر فنفذه كيف شئت »(٩٤) . لقد كانت الطبقة الوسطى تحاول الاستفادة من تحركات العامة ، بينما كان يرهبها عنف هذا التحرك ، فتسعى لاحتوائه .

٣ ــ أن قدرا من الوعى قد تمتعت به هذه الفئات خلال تلك الفترة ، واضح ذلك من مهاجمتها لمشايخ الأزهر خلال ثورة القاهرة الثانية ، عندما أشيع أنهم يتدخلون لوقف أعمال الثورة ، حيث ضرب العامة الشيخ الشرقاوى والشيخ السرسى ، واتهموهم بخذلان المسلمين لحساب الفرنسيين ، والحصول على رشوة من الفرنسيين(٩٥) ، وكذلك فيما أورده عن ثورة القاهرة عام ١٨٠٥ ، وظروف وصول محمد على الى السلطة(٩٦) .

الطبقـــات الريفيـــة :

يمكن فهم البناء الطبقى فى الريف خلال تلك الفترة ، على ضوء دراسة عدد من التطورات التى شهدتها البلاد ، وأبرزها :

اولا : التطورات التى حدثت فى نظام الضرائب وحيازة الأرض :

فقد الغى العثمانيون النظام الاقطاعى الذى كان معمولا به فى العصر المملوكى ، حتى يحرموا بقايا المماليك من مصادر قوتهم المادية ، واستعاضوا عن ذلك النظـــام بنظـــام الاعانات ، الذى

مالبث أن تطور الى نظام الالتزام ، الذى أصبح معترفا به من قبل الادارة العثمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر(٩٧) ، ويرجع اقدم سجل وصل الينا عن هذا النظام الى عام ١٦٥٨، ، وفى البداية كان نظام الالتزام بقوم على اعطاء حق جباية الضرائب كامتياز لمدة عام ، ومع استمرار التدهور فى أوضاع السلطة العثمانية ، أصبح الالتزام يمنح لمدى العمر كله ، ثم أصبح يورث ويباع ، ويمكن التنازل عنه للغير ، وابتداء من عام ١٧٢٨ صار هذا الوضع معترفا به من قبل الادارة المالية (الروزنامة)(٩٨) .

وقد أوجدت هذه التطورات عددا من الظواهر فى الحياة الزراعية المصرية ، منها :

١ ـ **اتساع الأوقاف** : بسبب الحقوق المتزايدة التى حصل عليها الملتزمون على الأراضى الزراعية ، والتى وصلت الى حد الملكية الخاصة ، خاصة على اراضى الوسية ، ذلك أن القاعدة الاسلامية فى الوقف تقوم على ان تكون الأرض المراد وقفها مملوكة ملكية كاملة للواقف ، حدث ذلك على الرغم من أن الدولة كانت من الناحية النظرية لاتزال تملك حق رقبة الأرض ، وثمة عامل آخر كان وراء ظهور الأحباس أو الوقف الأهلى ، هو القلق الذى عاشته البلاد خلال تلك الفترة ، وشيوع المصادرات ، وفى مواجهة هذه الظاهرة حصل بعض حائزى الأرض من الملتزمين(٩٩) .

٢ ـ دخول التجار الى دائرة الالتزام وحيازة الأرض :
ويرجع ذلك الى التطورات التى حدثت فى نظام الالتزام ، وهى تطورات مثلت عنصر جذب لكبار التجار ، وفى نفس الوقت كان راس المال التجارى المستثمر فى المدن ، كان يواجه مصاعب متزايدة ، بسبب القلق السياسى الذى عاشته المدينة المصرية ، واخيرا تدهور تجارة البن ابتداء من عام ١٧٣٠ ، بسبب المنافسة

التى أشرنا أليها ، وتشير المصادر الى أن تجار البن كانوا أسرع من غيرهم فى حيازة الالتزامات(١٠٠) ، ويفهم مما كتبه الجبرتى أن دخول التجار الى دائرة الالتزام قد أحدث بعض التغيير فى علاقات الانتاج فى الريف ، فالجبرتى يشير الى أن ابراهيم حفيد الدادة الشرايبى كان يعاون فقراء الفلاحين ، ويقرضهم التقاوى واحتياجات الزراعة وغيرها(١٠١) .

ثانيا : تطور علاقة الريف بالمدينة :

وهذه تعرضنا لها فى صدر هذه الدراسة .

ثالثا : محاولات الرأسمالية الأوربية ربط الدلتا بالسوق العالمى :

حيث تشير المصادر الى ان الدلتا أصبحت فى نهاية القرن الثامن عشر ، تشكل اهمية خاصة بالنسبة للأوربيين كمصدر للغلال ، التى ارتفعت اسعارها ، وخاصة فى فرنسا ، بسبب فشل الزراعة الفرنسية لأسباب مختلفة خلال تلك الفترة .

وقد تمكن المرابون ومسلفو النقود وعملاء الأوربيين من التغلغل فى الدلتا ، لاقراض الفلاحين الأموال بفوائد عالية بلغت ١٥٪ فى بعض الأحيان ، من اجل الحصول على المحاصيل الغذائية وخاصة الأرز ، على الرغم من معارضة المماليك .

وكان لمسلفى النقود وسائلهم الخاصة فى النفاذ الى عمليات زراعة الأرز ، والمحاصيل التى تدخل فى اطار التصدير ، وكان عملاء تجارة الأرز الرئيسيون من الأتراك ورعاياهم من اليونانيين ، وقد اضاف هذا النشاط مشكلات جديدة ، بالاضافة الى المشكلات التى كان يعانى منها الريف المصرى فى ذلك الوقت فى كل نظام الالتزام .

ويؤكد التاريخ الاجتماعى لكل من دمياط ورشيد ، وجود قدر من العداء بين السكان المحليين ونشاطات الأوربيين وعملائهم ؛ التى كانت تهدف الى تصدير المحاصيل الغذائية ، وخاصة الأرز ، ومحاولات الأوربيين انشاء قنصليات لهم فى هذه المناطق .

ولم تكن أحداث العنف التى شهدتها دمياط خلال تلك الفترة مصدرها الطبقات الشعبية ، التى لم تكن تعتمد على الأرز فى غذائها ، بل كان مصدرها الطبقات العليا التى يدخل الأرز فى طعامهم ، وعلى ذلك فان هذا الصراع كان قائما بين أغنياء الفلاحين وتجار الأرز المحليين وعملاء الملتزمين فى الريف وأدواتهم من جانب ، وعملاء الرأسمالية الأوربية من اليونانيين والمسيحيين الشوام والفرنسيين من جانب آخر . وكانت دمياط ورشيد ميدانا لهذا الصراع ، وتؤكد تلك الانتفاضات وأحداث العنف ، رفض محاولات الأوربيين اقامة رؤوس جسور لهم فى الدلتا ، كانوا يطمعون منها أن تمتد تلك الجسور ، ليسيطروا من خلالها على اقتصاديات البلاد(١٠٢) .

وعلى ذلك يمكن القول بأن الحقوق المتزايدة للملتزمين على الأرض ، ودخول راس المال التجارى الى مجال الزراعة فى الدلتا، ونمو الاقتصاد النقدى ، قد خلق امكانات جديدة لاستغلال الفلاحين، كما خلق امكانات لوجود قدر من الحراك الاجتماعى فى الريف ، تمثل فى ظهور نواة لطبقة من أعيان الريف خلال تلك الفترة(١٠٣) .

وثمة عوامل أخرى ساعدت على وجود هذه الشريحة ، منها أن مشايخ القرى كان لديهم مساحات من الأرض معفاة من بعض الضرائب الاضافية ، وذلك مقابل أدائهم لوظائفهم ، وفى نفس الوقت كان لبعض مشايخ القرى وسائلهم غير المشروعة فى الحصول على الأموال ، حيث كانوا يشاركون بعض الصيارف فى

الحصـــول على رشـــوة من الفلاحين ، مقابل التغاضى عن تأخر الفلاحين فى دفع الأموال المقررة عليهم ، وفى هذا يشير الجبرتى الى أن مشايخ القرى كانوا يستفيدون من جو الظلم والتجاوزات ، التى كانت تحدث فى ذلك الوقت ، حيث يقول الجبرتى : « وكذلك أشياخهم (يقصد الفلاحين) اذا لم يكن الملتزم ظالما ، لا يتمكنون هم أيضا من ظلم فلاحيهم ، ولا حصل لهم الرواج ، الا بطلب الملتزم بالزيادة والمغارم ، فيأخذون لأنفسهم فى ضمنها ما أحبوا ، وربما وزعوا خراج أطيان زراعتهم على الفلاحين » ، ويقول الجبرتى فى معرض هذا الحديث « أن شمس الدين بن حمودة أحد مشايخ قرية برما بالمنوفية ، كان فى حيازة أســرته الف فدان ، لا علم للملتزم بها ، وذلك خلاف ما بأيديهم من الرزق التى يزرعونها بالمال اليسير ، وأطيان الأسبلة والمساجد ، التى تحت أيديهم من غير شىء ، وخلاف فلاحتهم الظاهرة بالمال القليل »(١٠٤) .

وثمة مصدر أخير لتكوين ثروات مشايخ القرى خلال تلك الفترة ، وهو دور الوساطة الذى لعبه مشايخ القرى بين الفلاحين وتجار المدن ، حيث عمل بعضهم كوكلاء للتجار فى شراء المحاصيل من الفلاحين ، كما عمل بعضـــهم فى تســـليف النقود للفلاحين المحتاجين ، مقابل حصولهم على قيمة الدين من المحصـــول عند نضجه ، ففى أبريل أو مايو عام ١٧٧٩ اشترى الحاج طه شيخ الخيارية (دقهلية) ١٥ ضريبة أرز ، ثمنها ١٨٠ ريالا من أخوين من قرية البدالة المجاورة ، على أن تسلم عند نضج المحصول(١٠٥) .

وعلى ذلك ، فمع نهاية القرن الثامن عشـــر ، كانت هنـــاك شريحة من أعيان القرى ، تحتل موقع الصدارة فى مجتمع القرية ، وظل بعضها يحتفظ بهذا الوضع طوال القرن التاسع عشر ، كما يؤكد علي مبارك فى الخطط التوفيقية(١٠٦) .

وقد لعب بعض هؤلاء الأعيان دورا واضحا فى مقاومة الاحتلال الفرنسى ، والحيلولة دون استقرار سلطة الفرنسيين فى الريف ، ففى الانتفاضات التى حدثت فى شهر نوفمبر ١٧٩٨ ، اتهم الفرنسيون مشايخ ادكو وادفينا ، بأنهم كانوا وراء تلك الانتفاضات، ومن ثم أحضرهم الفرنسيون الى رشيد ، حيث تم اعدامهم رميا بالرصاص ، وعقب اخماد ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨) ، قامت وحدات من الجيش الفرنسى بالطواف بالقرى التى شاركت فى الثورة أو التحريض عليها ، كما ألقت هذه الوحدات القبض على بعض الأعيان ومشايخ القرى ، بتهمة الاشتراك فى الثورة ، وعادت بهم الى القاهرة ، حيث أعدم البعض ، واعتقل البعض الآخر ، وكان من بين الذين اعدموا سليمان الشواربى شيخ بلدة قليوب ، وتشير المصادر ايضا الى الدور الذى لعبه حسن طوبار شيخ قرية المنزلة ، وابو قورة شيخ قرية ميت العامل ، وعلى العديسى ، فى انتفاضات المنصورة ودمياط ، وفى محاولة القوات الفرنسية القضاء على الأعيان الثلاثة ، حدثت معركة كبيرة عند الجمالية ، بين عناصر المقاومة من الفلاحين ، والقوات الفرنسية ، كما لعب ابن شعير شيخ قرية عشما (منوفية) دورا مماثلا فى الكفاح ضد الفرنسيين ، وفى محاولة القضاء عليه ، دارت معركة انتهت بقتله ، بعد أن حاصرت القوات الفرنسية قرية عشما ، وسوف يلعب أعيان الريف دورا واضحا فى التطورات التى شهدها القرن التاسع عشر(١٠٧) .

الفلاحون فى نهاية القرن الثامن عشر :

تؤكد بعض الدراسات عن الريف المصرى خلال تلك الفترة ، أن ضريبة الميرى قد تضاعفت أربع مرات خلال الفترة ما بين عامى ١٦٥٨ ، ونهاية القرن الثامن عشر ، وأنها اختلفت من قرية لأخرى، وأن هذه الزيادات اصبحت تعرف بالمال المضاف ، وأن المال

المضاف كان يقرر فى بعض الأحيان لمواجهة العجز المتزايد فى ايرادات الخزانة .

وكان مجموع الضرائب التى يدفعها الفلاح ، تعرف باسم المال الحـــر ، وكان يتراوح ما بين ٩٠ ميديا (بارة) ، و ٣٠٠ ميديا عن الأراضى الجيدة .

لقد زيدت ضرائب الأرض خلال العصر العثمانى عدة مرات ، ومع نهاية القرن الثامن عشر أصبح النظام الضريبى فى مصر بعيدا عن العدالة ، فمن ناحية لم تشهد فترة الحكم العثمانى عمليات مسح للأراضى الزراعية ، واعادة تقويم لضرائبها ، على الرغم من التغييرات التى طرات على مساحة الأرض المزروعة وخصوبتها، وان كانت هناك بعض الجهود المحلية ، التى كان يقوم بها الملتزمون والموظفون المحليون ، من اجل تحقيق قدر من العـــدالة فى هذا الاتجاه .

وفى البداية (القرن السادس عشر) ، كان الخراج والمال الحر متقاربين ، وكان الجزء الأكبر من الضرائب المحصــــلة من الأرض يذهب للخزانة ، ولم يكن سوى قدر قليل من هذه الأموال يذهب للادارة المحلية ، وتدريجا أصبح المتحصـــــل الاجمالى فى تناقص ، وكان العـــــامل الرئيسى فى هذا النقص هو التدهور الشديد فى قيمة العملة فى مصر(١٠٨) .

وكنتيجة لتدهور العملة ، وما صاحب ذلك من تضـــــخم فى الأسعار ، وبسبب الانفاق المتزايد لسلطات المماليك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ازدادت الضرائب على الأرض ، وأصبحت قيمة المضاف تبلغ ٥٠٠٠ر٥ بارة عن كل ٢٥ الف بارة من المال القديم ، كما أصبح متوسط الضريبة على الفدان تصل الى ٧ بارات فى نهاية القرن الثامن عشر ، بينما ارتفع دخل الدولة

من الضرائب على الأرض الزراعية من ٣١٢ر٤٧٨ر٤٤ بارة عام ١٥٩٦ ، الى ٣٨٩ر٢١٢ر٧٥ بارة عام ١٧٩٨ ، بزيادة قدرها ٦٠٪ ، وهي زيادة قد تبدو عادلة بالقياس بالتدهور الذي حدث في قيمة العملة ، لكن الحقيقة أن المال الحر قد زاد من ٥٠ مليون بارة تقريبا مع نهاية القرن السادس عشر ، الى ٢٥٠ر٨٠٠ر٤١١ بارة عام ١٧٩٨ ، أي بزيادة تصل الى ٨٠٠٪ ، كان يذهب منها ٢١٪ فقط الى الخزانة ، و ١٢٪ الى الادارة المحلية والموظفين المحليين ، أما الباقي وتبلغ نسبته ٦٧٪ ، فكان يذهب الى الملتزمين وعملائهم(١٠٩) .

وعلى هذا فمع نهاية القرن الثامن عشر ، كان المتحصل من الفلاحين لصالح الملتزمين والسلطات المحلية من الفايض والبراني والكشوفية يفوق الضريبة الأصلية ، وهى الميرى ، التي تذهب للسلطات المركزية(١١٠) .

والى جانب هذه الضرائب الرسمية ، وشبه الرسمية ، عانى الفلاحون خلال تلك الفترة من النهب والمصادرات ، التي كانت تعرف بالكلف والفرد والمظالم ، التي أفاض الجبرتي في الحديث عنها ، وفي نفس الوقت فان التحولات التي شهدتها الدلتا ، والتي سبق الاشارة اليها ، لم يكن ليستفيد منها صغار الفلاحين ، فالفلاح العادي الذي كان يعمل بأدواته البسيطة ، ويخضع لتلك الضرائب الباهظة ، والابتزاز المستمر ، كان من الصعب أن يجد فائضا في رأس المال لديه أو لدى جيرانه ، لانتاج المحاصيل الأكثر ادرارا للربح ، وبينما كانت الفئات القادرة في مجتمع القرية ، تستطيع انتاج مثل هذه المحاصيل ، كانت أوضاع فقراء الفلاحين آخذة في التدهور(١١١) . فلا عجب أن تتحدث المصادر عن وجود شريحة من الفلاحين المعدمين في الريف المصري ، يعملون لحساب

غيرهم من أغنياء الفلاحين ، فى وقت كان الريف المصرى يعانى فيه بشكل واضح من قلة عدد السكان ، وترجع الباحثة الأمريكية هيلين ريفيلين ذلك الى قدرة الملتزمين خلال تلك الفترة على تجريد الفلاحين الذين يعجزون عن دفع الضرائب من أراضيهم ، الأمر الذى كان يضطرهم الى العمل لدى الآخرين ، اذا لم يهاجروا من الاقليم بأكمله(١١٢) .

ومما زاد من بؤس الفــلاحين خلال تلك الفترة ، أن الريف أصبح ميدانا للصراع بين أجنحة المماليك ، خاصة الصعيد الأعلى ، الذى أصبح مسرحا للصراعات والقلاقل بين المماليك الفارين من سلطة القاهرة ، بعد القضـــــاء على حركة شيخ العرب همام، (١٧٦٥ ــ ١٧٦٩) ، ونتيجة لذلك أصبحت المنطقة فى حالة من الضنك ، ويفسر جيرار تدهور أوضاع الريف المصرى خلال تلك الفترة بشكل عام ، الى وسائل المماليك فى الحصول على الفائض ، وكانت تعتمد على القوة ، والى عدم الاهتمام بتحسين الأرض ، أو اصلاح الزراعة(١١٣) .

ويعلل محمد أنيس تزايد الأعباء الضــريبية على القطاعات المنتجة خلال تلك الفترة ، بتطلع المماليك الى مشروعات كبيرة ، تطلبت الكثير من الأموال ، ابتداء من على بك الكبير . فمشروعات ذلك الرجل وطموحاته تطلبت تكوين قوة عسكرية كبيرة وحديثة نسبيا ، اعتمد فى تكوينها على المرتزقة ، الى جانب القوة التقليدية للمماليك ، كما جهز جيشه بقوة من المدفعية ، لعبت دورا كبيرا فى حملته على سوريا ، وقد استمرت هذه السياسة فى عهد خلفائه محمد بك أبو الدهب وابراهيم ومراد .

ان استخدام هؤلاء المرتزقة على نطاق واسع ، الى جانب استخدام الأسلحة الحديثة ، فضلا عن اســـــراف المماليك ، هو

المسئول عن زيادة الضـــــرائب خلال تلك الفترة ، والضـــغوط الاقتصـــادية التي عانت منها الطبقـــات المنتجة فى الريف والمدينة(١١٤) .

ولذلك فقد شـــهدت تلك الفترة قدرا من القلق فى المجتمع الريفى ، اتخذ عدة مظاهر ، منها هجرة الفلاحين الى بلاد الشام ، والانتفاضة ضد السلطة ، حيث يصف الرحالة الفرنسى سونينى ، الذى زار الصعيد عام ١٧٧٨ ، الاضطرابات التى كانت تموج بها المنطقة الواقعة الى الجنوب من اسيوط حتى قنا ، بأنها ابعد ما تكون عن الاستقرار ، فالفلاحون فى القرى المجاورة لطهطا كانوا فى حالة ثورة ، ورفضـــوا دفع الضرائب ، وانضم اليهم العرب المستقرون ، واســـتطاعوا هزيمة قوة الكشاف (حكام الاقليم) التى تجمعت لمواجهتهم ، وانه اضطر الى ركوب واحدة من المراكب الكبيرة ، التى كانت تحمل القمح الى العاصمة(١١٥) .

كما كان الفـــلاحون فى وقت الأزمات ، يلجأون الى المدن الكبرى ، كما يذكر الجبرتى فى أحداث عام ١١٠٦ هـ (١٦٩٤) ، حيث كانت البلاد تعانى من الشدة والغلاء ، فقد حضر أهالى القرى والأرياف الى القاهرة ، حتى امتلأت بهم الأزقة(١١٦) .

كما أن التحرك الذى شـــهدته القاهرة عام ١٧٩٥ ، قد بدأ بوصول فلاحى احدى قرى الشرقية الى القاهرة ، يحتجون على ظلم الســـلطات المملوكية فى الاقليم ، ويســـتغيثون بالشـــيخ الشرقاوى(١١٧) .

لقد كانت أوضاع الريف فى نهاية القرن الثامن عشر أبعد ما تكون عن الاستقرار ، ومع الغزو الفرنسى زادت معاناة الفلاحين، كما زادت أوضاع الريف ترديا ، فمن ناحية حرص الفرنسيون على

تحصيل كل الضرائب ، التى كانت تحصل من الريف قبل وصولهم ، بصرف النظر عن مشروعية هذه الضرائب(١١٨) .

يتضح ذلك من الأمر الذى أصدره بونابرت فى ١٧ أغسطس ١٧٩٩ ، والذى جاء فيه « أن السلطات الفرنسية سوف تحصل على الميرى ، وكافة الضرائب المستحقة على الأرض الزراعية ، دون النظر للأموال التى قام الفلاحون بتسديدها قبل وصول الفرنسيين » . كذلك أشار هذا الأمر الى زيادة الضرائب فى عدد من الأقاليم ، وفى نفس الوقت عمل الفرنسيون على تحصيل العديد من الاتاوات بين الحين والحين ، متعللين بالثورات والانتفاضات ، التى كان يقوم بها الفلاحون ، ففى الأمر الذى أصدره كليبر فى ١٤ نوفمبر ١٧٩٩ ، فرض مبلغ ٦٠ الف بوطاقة على اقليم الغربية ، و ٣٠ الفا على اقليم القليوبية ، ومثلها على اقاليم الشرقية والجيزة ورشيد ، و ٦٠ الفا على منوف كضريبة غير عادية ، يصير استقطاعها من المال الشتوى المقرر على هذه الأقاليم ، هذا بالاضافة الى الأموال التى كان يحصلها الوكلاء الأقباط لحسابهم(١١٩) .

كذلك فان وصول الفرنسيين ، لم يضع حدا للنهب والتهديد الذى كان يتعرض له الفلاحون من قبل البدو ، الذين استمر تهديدهم للريف ، مما جعل بعض مشايخ القرى ، يطلبون حماية السلطات الفرنسية ، حتى يتمكنوا من زراعة أراضيهم ، وقد أضاف الحصار الانجليزى للشواطىء المصرية عاملا جديدا لمعاناة الفلاحين ، فقد تسبب هذا الحصار فى وقف تصدير الأرز ، مما أدى الى انخفاض أثمانه ، وبالتالى عجز الفلاحون فى هذه المناطق عن سداد الأموال المطلوبة منهم ، كما أدى ذلك أيضا الى توقف التجار عن تقديم القروض للفلاحين لتمويل زراعة الأرز فى تلك

المناطق ، الأمر الذى كان مصدر شكوى الفلاحين فى مناطق دمياط وما حولها(١٢٠) .

وعلى ذلك يمكن القول بأن أوضـــاع الفلاحين قد ازدادت سوءا فى ظل الحكم الفرنسى ، فالفرنسيون لم ينفذوا اصلاحات جوهرية فى الرى ، أو فى نظام حيازة الأرض ، ذلك لأن مشروع مينو لاصلاح نظام الحيازة ، لم يقدر له أن يوضع موضع التنفيذ ، وتركز اهتمام الفرنسيين فى تحصيل أكبر قدر من الضرائب ، التى وقعت على كاهل الفلاحين ، ولم تكن وســـــائل الفرنسيين فى تحصيل الضرائب تقل قسوة عن وسائل المماليك فى ذلك ، وقد تحدث الجبرتى عن وسائل الفرنسيين ، التى تصل الى حد الحرق والضرب بالمقارع والكسارات(١٢١) .

وهذا يفســر — الى جانب عوامل اخرى — عنف مقاومة الفلاحين وصغار الأعيان ، لمحاولات الفرنسيين تأسيس سلطة لهم فى الريف ، وقد أعقب خروج الفرنسيين فترة لا تقل فى قسوتها على الفلاحين ، عن الفترة التى ســبقتها ، حيث أصــبح الريف — وخاصة صعيد مصر — ميدانا لصـــراع عنيف بين محمد على والمماليك ، أفاضت المصادر فى الحديث عنه ، وهى فترة استمرت حتى عام ١٨١١ ، عندما تمكن محمد على من القضاء على المماليك ، وتأسيس سلطة قوية فى الريف .

ويبدو أن التغييرات الأولى التى أحدثها محمد على فى القطاع الزراعى لقيت ارتياحا من جانب الفلاحين ، يفهم ذلك مما سجله الجبرتى على لســـان الفـــلاحين فى احـداث عام ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م)(١٢٢) .

هوامش الفصـــل الأول

(١) يرجح د . محمد أنيس أن الجبرتى مات فى الفترة ما بين اول ربيع ثانى و ٢٧ رمضان عام ١٢٤٠ هـ (٢٣ نوفمبر ١٨٢٤ — ١٤ مايو ١٨٢٥ م) ، وذلك اعتمادا على وثائق المحكمة الشـــرعية ، د . محمد أنيس : حقائق عن عبد الرحمن الجبرتى مستمدة من وثائق المحكمة الشــرعية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلدان ٩ و ١٠ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٢ .

والجبرتى نسبة الى اقليم جبرت من اقليم زيلع فى بلاد الحبشة ، ومنه هاجرت أسرة الجبرتى فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) .

(٢) د . احمد عزت عبد الكريم : دراسات وبحوث ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢١ .

(٤) عجائب الآثار : جـ ١ ، ص ٣٩٦ .

(٥) عبد الرحمن الجبرتى : دراسات وبحوث ، ص ٤٩ .

(٦) عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ١٩٦ — ٢٠٠ .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى : دراسات وبحوث ، ص ٢٣ .

(٨) عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٩) كان الجبرتى قد أخرج الجزء الخاص بفترة الحملة الفرنســية تحت عنوان « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » ، ثم اجرى عليه بعض التعديلات بطريقة جعلته أكثر موضوعية ، مع اضافة أحداث الفترة من ١٢١٦ — ١٢٢٠ هـ .

(١٠) أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة : جـ ٣ ، ص ١١٣٠ ، ١١٣١ .

(١١) د . محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٦٥ .

البرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٥١ .

(١٢) Shaw, S.J. : History of the Ottoman Empire and Dodern Turkey, Cambridge Univ. Press, 1976, P. 225.

(١٣) Shaw : Op. Cit., PP. 253, 254.

(١٤) د . محمد انيس : المرجع السابق ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

(١٥) Shaw : Op. Cit., P. 223.

(١٦) Ibid, : P. 224.

(١٧) Ibid. : P. 247.

(١٨) د . محمد انيس : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

(١٩) محمد عماره . تيارات اليقظة الاسلامية الحديثة ، كتاب الهلال ، اغسطس ١٩٨٢ ، ص ١٦ .

وقد ناقش محمد أنيس المظاهر التى اتخذها الاستعمار الأوربى فى المنطقة العربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، محمد انيس : المرجع السابق ، ص ١٨٩ ، ١٩١ .

(٢٠) السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، من الفتح العثمانى الى الاحتلال البريطانى ١٥١٧ — ١٨٨٢ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

Anis, M. : England adn the Suez Route in the Eighteenth Century, Cairo, 1957, PP. 32 — 35.

(٢١) المرجع السابق : ص ٨٥ .

(٢٢) Anis, M. : Op. Cit., P. 32.

بيتر جران : الجذور الاسلامية للراسمالية لمصر ١٧٦٠ — ١٨٤٠ ، ترجمة محروس سليمان ، دار الفكر للدراسات ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٣١ .

(٢٣) حراز : المرجع السابق ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢٤) حول مظاهر المقاومة ضد الاحتلال الفرنسى ، انظر : عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، جـ ١ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٣٨ — ٤١٦ .

(٢٥) حراز : المرجع السابق ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٢٦) محمد انيس ، والسيد رجب حراز : التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٧٨ — ٨٠ .

(٢٧) ناقش محمد فؤاد شكرى أحداث هذه الفترة تفصيلا ، فى كتابه : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ — ١٨١١ ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ ، ج ١ ، أيضا : حراز : المرجع السابق ، ص ١٥٧ — ١٧٩ .

(٢٨) البحر الاحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة : أصدرته جامعة عين شمس ، ١٨٩٠ ، قاسم عبده قاسم : علاقات مصر بعالم البحر الأحمر فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢٩) آلان ريتشاردز : التطور الزراعى فى مصر ١٨٠٠ — ١٩٨٠ ، ترجمة أحمد فؤاد سيف النصر ، كتاب الأهالى رقم ٣٤ ، القاهرة ، يوليو ١٩٩١ ، ص ١٥ .

(٣٠) Raymond, A. : Artisans et Commercants au Caire au XVIIIe Siecle, Tome I, Damas, 1973, P. 80.

(٣١) هاملتون جب ، وهارولد بوين : المجتمع الاسلامى والغرب . ج ٢ ، ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ١٦٢ — ١٦٥ .

(٣٢) على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ١٨ — ٢٠ .

(٣٣) جيرارد : وصف مصر ، المجلد الرابع ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٩٦ ، ١٩٨ .

(٣٤) Owe,n R. : Cotton and the Egyptian Economy 1820 Oxford,1969, PP. 6, 7.

(٣٥) أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، على الجريتلى : المرجع السابق ، ص ١٨ — ٢٠ .

(٣٦) المرجع السابق : ص ١٨ — ٢٠ .

(٣٧) بيتر جران ، المرجع السابق .

(٣٨) عبد الرحمن فهمى : النقود المتداولة أيام الجبرتى فى عبد الرحمن الجبرتى ، دراسات وبحوث ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٥٥٨ ، ٥٥٩ .

(٣٩) عجائب الاثار فى التراجم والأخبار : طبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٩٧ هـ ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .

(٤٠) عجائب الاثار : ج ٣ ، ص ٢٢٣ ، ٢٣٩ .

(٤١) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٧٠ ، حوادث شهر رجب .

(٤٢) Vansleb, R.D. : The Present State of Egypt 1672 — 1673, London, 1972, P. 149.

(٤٣) عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٤٤) عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ١٠٤ .

(٤٥) آلان ريتشاردز : المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٤٦) محمد جابر الأنصـــارى : قراءة جديدة فى تاريخ الجبرتى ، معالم الخلفية الاجتماعية التاريخية لحركة النهضـــة العربية ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، تصدرها جامعة الكويت ، العدد ٣١ ، المجلد الثامن ، ١٩٨٨ ، ص ٢٧ — ٣٠ .

(٤٧) هيلين ريفيلين ، الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٤٠ .

(٤٨) جران : المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

Shaw, S. : Ottoman Egypt in the age of the French Revolution, Harvard Univ. 1964, P. 10.

(٤٩) حكمت أبو زيد : المجتمع القاهرى فى عهد الحملة الفرنسية ، ضمن الجبرتى ، دراسات وبحوث ، ص ٣٤٥ .

(٥٠) Shaw. : Op. Cit., P. 12.

(٥١) حراز : المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

(٥٢) ريفيلين : المرجع السابق ، ص ٦٢ — ٦٥ .

(٥٣) حراز : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

وعن أحداث تلك الفترة ، انظر : عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٤٠٩ .

(٥٤) Raymond : Op. Cit., PP. 400 , 401.

(٥٥) عجائب الآثار : جـ ١ ، ص ١٧٦ ، جـ ٢ ، ص ٢١٨ ، ٢٥٥ .

Raymond : Op. Cit., P. 405.

(٥٦) عجائب الآثار : جـ ١ ، ص ٨٧ ، أيضا عبد الرحيم عبد الرحمن : نشوء الرأسمالية المصرية المحلية خلال العصر العثمانى ١٥١٧ — ١٧٩٨ ، مجلة كلية الدراسات الانسانية ، جامعة الأزهر ، العدد الثالث ، ١٩٨٥ ، ص ٣١٦ — ٣١٨ .

(٥٧) جران : المرجع السابق ، ص ٤٨ ، ٣١ .

(٥٨) Raymond, Op. Cit., PP. 392, 393, 396.

(٥٩) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٢٢٦ .

(٦٠) Raymond : Op. Cit., P. 382.

حول توزيع الأنشطة الاقتصادية فى القاهرة فى القرن الثامن عشر ، انظر : أندريه ريمون : القاهرة تاريخ حاضرة : ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٢٢٤ — ٢٣٠ .

(٦١) وصف مصر : دى شيرول ، دراسة عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٩ .

(٦٢) عجائب الآثار : جـ ١ ، ص ٢٥٠ .

(٦٣) عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ٢٢٦ .

(٦٤) جران : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٦٥) دى شيرول : المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٦٦) Raymond : Op. Cit., PP. 396, 397.

(٦٧) جران : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٦٨) ريفيلين : المرجع السابق ، ص ٥٣ — ٥٧ ، على بركات : تطور الملكية الزراعية واثره على الحركة السياسية ١٨١٣ — ١٩١٤ ، الثقافة الجديدة ، ١٩٧٧ ، ص ١٦ ، عجائب الآثار : جـ ٤ ، ص ٢٣٣ — ٢٣٧ .

(٦٩) عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ١٧١ .

(٧٠) حكمت ابو زيد : المجتمع القاهرى فى عهد الحملة الفرنسية ، فى الجبرتى ، دراسات وبحوث ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٤٢ .

(٧١) عجائب الآثار : ج ٤ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٧٢) عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ١٠٦ ، ١٥٢ .

(٧٣) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٨ .

(٧٤) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ١٠ .

(٧٥) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ١١ .

(٧٦) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٥ .

(٧٧) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٦٠ .

(٧٨) Raymond : Op. Cit., P. 322.

(٧٩) وصف مصر : عادات المصريين المحدثين ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٩ ، ١٠ .

Raymond : Op. Cité., P. 384.

(٨٠) جران : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٨١)

(٨٢)عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٦٠ .

(٨٣) Raymond : Op. Cit., P. 386.

(٨٤)عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٨٥) عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ١٨٩ ، اندريه ريمون : المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٨٦) عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ١٨٩ ، لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، الخلفية التاريخية ، كتاب الهلال ، فبراير ١٩٦٩ ، ص ٦٣ .

(٨٧) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٢٥ .

(٨٨) محمد انيس ، والسيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٨٩) حول يوميات الثورة ، وحصار القلعة ، انظر : عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٣٢٨ — ٣٤١ .

(٩٠) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٣٣٧ .

(٩١) حكمت ابو زيد : المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .

وعن دور هذه الفئات فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية ، وهزيمة الحملة الانجليزية انظر : عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، جـ ٤ ، ص ٥٥ .

(٩٢) عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ١٠٠ .

(٩٣) عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ٢٥٨ .

والعلماء الذين حضروا الاجتماع هم الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير والشيخ البكرى ونقيب الأشراف .

(٩٤) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٣٣٧.

(٩٥) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٩٩ .

(٩٦) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ٣٣٧ .

(٩٧) Shaw : Op. Cit., P. 95.

(٩٨) جران : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٩٩) ريفيلين : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(١٠٠) عبد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ ، ص ٩١ .

(١٠١) عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ٢١٣ .

(١٠٢) جران : المرجع السابق ، ص ٥٦ ، ٥٧

(١٠٣) على بركات : الحراك الاجتماعى فى القرية المصرية فى القرن الثامن عشر ، اسبابه ومظاهره ، المجلة الاجتماعية القومية ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٩١ ، ص ٣٢ — ٣٥ .

(١٠٤) عجائب الآثار : جـ ٤ ، ص ٢٠٨ ، ٢١٠ .

(١٠٥) Cuno, K.M. : The Pasha's Peasants, Cairo, 1994, P. 59.

(١٠٦) على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، بولاق ، ١٣٠٥ هـ ، جـ ١٦ ، ص ٦٩ ، جـ ١٤ ، ص ١٥ على سبيل المثال .

(١٠٧) على بركات : المرجع السابق ، ص ٣٩ ، عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٨ .

(١٠٨) Shaw : Op. Cit., P. 97.

(١٠٩) Ibid.

(١١٠) على بركات : المرجع السابق ، ص ١٣ ، ١٤ .

(١١١) على بركات : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(١١٢) هيلين ريفلين : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(١١٣) جيرار : المرجع السابق : ص ٣٧ — ٤٠ .

(١١٤) محمد انيس : المرجع السابق ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(١١٥) Sonini : Travels in Upper and Lower Egypt, translated London, 1979, P. 677.

(١١٦) عجائب الآثار : جـ ١ ، ص ٢٦ .

(١١٧) عجائب الآثار : جـ ٢ ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(١١٨) فاطمة الحمزاوى : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مصر في عهد الحملة الفرنسية ، رسالة ماجستير ، مقدمة لكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ٢٧٩ .

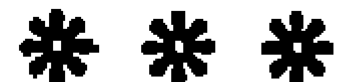
(١١٩) المرجع السابق : ص ٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ .

(١٢٠) المرجع السابق : ص ٢٩٧ — ٣٠٠ .

(١٢١) عجائب الآثار : جـ ٣ ، ص ١١٣ .

(١٢٢) عجائب الآثار : جـ ٤ ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

حيث يذكر الجبرتى انه فى ذلك العام طلب بعض الملتزمين من الفلاحين مساعدتهم فى ضم المحصول بأجر . فكان الفلاح يقول « روح أنظر غيرى أنا مشغول فى شغلى ، أنتم ايش بقالكم فى البلاد ، لقد انقضت إيامكم ، احنا صرنا فلاحين الباشا » .



الفصــــل الثـــانى

فى نقــد ثقافــة المجتمــع

تكاد المصادر تجمع على ان الحضارة الاسلامية قد وصلت خلال العصر العثمانى الى مرحلة من التدنى لم يسبق لها مثيل ، وخاصـــــة ذلك التدهور الذى اصاب الحياة الفكرية والدينية فى الشرق العربى ، لكن الحقيقة أن هذا التدهور ليس مســئولية العثمانيين وحدهم ، ذلك لأنه يرجع الى عوامل تسبق زمنيا وصول العثمانيين الى المنطقــة ، ويمكن اجمال هذه العــوامل فى عاملين رئيسين :

١ ـ الانهاك الحضارى الذى اصيبت به المنطقة العربية :

من جراء الأخطار التى تعرضت لها ، ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى ، وابرزها الهجوم الصليبى (٤٨٩ هـ/١٠٩٦ م ـ ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م) . والغزو المغولى ، الذى تعرض له الجناح الشرقى من الامبراطورية الاسلامية فى القرن الثالث عشر الميلادى. حقيقة استطاعت المنطقة ان تصفى الخطر الصليبى خلال معارك استمرت قرنين من الزمان ، كما تمكنت من القضاء على الخطر المغــولى فى عين جالوت عام ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م ، على يد دولة المماليك فى مصر ، الا ان الثمن الذى دفعته المنطقة كان غاليا ، فخلال الحروب الصليبية دمرت مناطق واسعة من بلاد الشـــام والجزيرة وشمال العراق ، كما غزا الصليبيون مصر اكثر من مرة ، وخلال تلك الهجمات الشرسة دمرت مكتبة بنى عمار فى طرابلس الشام ، وهى من اغنى المكتبات فى تلك الفترة .

أما الخطر المغولى فكان أكثر تدميرا ، ففى هجومهم الصاعق على الجناح الشرقى للامبراطورية الاسلامية ، دمر المغول بخارى، وتركوها أنقاضا لا حياة فيها ، بعد أن كانت مدينة مزدهرة ، وفعلوا نفس الشىء فى كل البلاد التى دخلوها ، فقد دمروا المكتبات العشر ، التى كانت موجودة بمدينة مرو ، وكذلك فعلوا بمدينة سامرة(١) .

أما بغداد ، فقد خربت الخراب العظيم ، كما يذكر المؤرخ ابن تغرى بردى « وأحرقت كتب العلم التى كانت بها من سائر العلوم ، واقام المغول من مكتبتها جسرا عبرت عليه خيولهم الى الغرب »(٢) ، بعد ان انزل التتار بعاصمة الخلافة مذبحة راح ضحيتها حوالى ثمانمائة الف من السكان ، من بينهم الخليفة العباسى المستعصم نفسه ، ويقال أن مياه نهر دجلة تغير لونها لكثرة ما القى فيها من الكتب والورق(٣) ، وهكذا دمرت واحدة من أكبر ثلاث مكتبات فى العالم فى العصر الوسيط ، فالقلقشندى يذكر أن « أعظم خزائن الكتب فى الاسلام ثلاث خزائن ، احداها خزانة الخلفاء العباسيين فى بغداد ، فكان بها من الكتب ما لا يحصى ، ولم تزل على ذلك الى أن داهمت التتار بغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ، وذهبت خزانة الكتب فيما ذهب »(٤) ، وقد ظلت آثار الدمار الذى أحدثه التتار فى بغداد باقية لأجيال تالية ، ذلك لأنه لم يكن من الممكن تعويض ما أتلفه هؤلاء التتار من التراث الفكرى ، وهو فى ذلك الوقت ميراث اجيال(٥) .

وبينما جناح العالم الاسلامى الشرقى يواجه هذه الهجمات البربرية ، كان جناحه الغربى يتعرض لهجمات لا تقل ضراوة ، عندما راحت القوى المسيحية فى شبه جزيرة ايبيريا تكثف هجومها

للقضاء على المسلمين ، وتمكنت فى النهاية من الاستيلاء على آخر معاقلهم فى الأندلس ، بسقوط غرناطة فى عام ١٤٩١/١٤٩٢ م ، وعندما تمكن المسيحيون من ذلك ، انقلبوا على التراث الاسلامى يدمرون ما تبقى من كتب ومخطوطات فى مختلف فروع المعرفة ، على الرغم من أن شروط تسليم غرناطة كانت تنص على السماح للمسلمين بالاحتفاظ بدينهم وأملاكهم وكتبهم وثقافتهم(٦) .

وهكذا كان العالم الاسلامى على مشارف العصر الحديث قد دمر الجانب الأكبر من تراثه الفكرى ، بسبب الهجمات الخارجية ، كما اصيب بالانهاك الحضارى من جراء الجهد المتصل فى مدافعة هذه الأخطار ، وفى حرب البقاء هذه كان العرب قد أسلموا القيادة على امتداد الأرض العربية والاسلامية لعناصر غير عربية، حديثة عهد بالاسلام ، وبعيدة الى حد كبير عن التراث العربى ، وهنا يكمن العامل الثانى فى أزمة الحضارة والفكر الاسلامى .

٢ ــ سيطرة الترك على السلطة فى الدولة الاسلامية :

ذلك أنه بينما كان الصراع على أشده ضد القوى المعادية ، والطامعة فى المنطقة العربية ، كانت السلطة الحقيقية قد انتقلت الى أيدى الترك فى الدولة الاسلامية ، وان كان قد بقى ظل من سلطة واهية فى أيدى الخلفاء العباسيين فى بغداد ، وفى البداية دخل الترك الى الدولة الاسلامية كأفراد وعبيد ، ثم أخذوا ينضمون للجيوش الاسلامية بعد تعليمهم وتدريبهم ، ثم ما لبثت مقاليد الأمور ان أصبحت فى أيديهم ، وقد عرف هذا العنصر باسم المماليك ، ثم تبعتهم هجرات لقبائل تركية تحت قيادتها ، ثم استقرت فى العالم الاسلامى ، أو على أطرافه ، ثم مالبثت هذه القبائل أن اعتنقت الاسلام ، وأصبحت من خيرة العناصر المدافعة عنه .

ومع غزو المغول للعالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) كانت سيطرة الترك على مقاليد الأمور فى الدولة الاسلامية قد أصـــبحت حقيقة واقعة ، وفى أعقاب معركة عين جالوت كان الترك يسيطرون سيطرة شـــاملة على المنطقة ، من مصر حتى الهند شرقا ، فالدولة الغزنوية فى الهند ، والأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى ، والمماليك فى مصر ، كلهم ينتمون الى العنصر التركى ، وقد أعطت هذه الســيطرة للحضارة والنظم الاسلامية طابعا معينا ، كما عكست نفسها فى الفترة التالية فى الأبنية الاجتماعية والفكرية للمجتمعات الاسلامية ، وقد زود العنصر التركى الاسلام بدماء جديدة ، فدولة المماليك فى مصر استطاعت أن تهزم الخطر المغولى فى عين جالوت ، وأن تصفى الغزو الصليبى من بلاد الشام ، كما استطاع العثمانيون أن يسيروا بالاسلام مرحلة أخرى فى قلب أوربا، وأن يدافعوا عن دار الاسلام لفترة تزيد على ثلاثة قرون(٧) .

لكن الفرسان الذين حققوا النصر على الجبهة العسكرية ، وأعطوا للأمة أعظم انتصاراتها ، ســـاهموا ـــ بســبب غربتهم الحضـــارية عن التراث العربى الاســـلامى ـــ فى نكســـة الفكر والحضارة الاسلامية ، وساعدوا على سيادة تيار الجمود والتخلف على الجبهة الحضارية(٨) . فلم يكن هؤلاء أقل خطرا على التراث من المغول أنفسهم ، فالســـلطان محمود الغزنوى استخرج كتب علوم الأوائل وعلم الكلام من مكتبة الصاحب بن عباد ، التى كان قد وقفها على مدينة الرى ، وأمر باحراقها(٩) ، كما تســـبب الأيوبيون فى تبديد واحدة من أكبر المكتبات الاسلامية فى العصر الوسيط ، وهى مكتبة القصر الفاطمى(١٠) ، عندما أوكل صلاح الدين للأمير بهاء الدين قراقوش ـــالخصى التركى ـــ مســئولية التصرف فى القصور الفاطمية ، بعد أن قضى صلاح الدين على

الخلافة الفاطمية (١١٧١ م (٥٦٧ هـ) ، وكانت هذه المكتبة تضم كتبا فى الشريعة والطب والهندسة والتاريخ والتفسير والمنطق ، وغير ذلك من المعارف ، وبعض كتبها كان يزيد على ستين مجلدا ، كما كان بها ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبرى ، وقد بيعت هذه المكتبة بالمزاد على مدى عشر سنوات ، وأشرف على بيعها الأمير بهاء الدين قراقوش ، ويذكر أبو شامة صاحب كتاب الروضتين ، انها كانت « كالميراث مع أمناء الأيتام ، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام »(١١) . كما وصف الأمير قراقوش بأنه « تركى ، لا خبرة له بالكتب ، ولا دراية له بأسفار الأدب »(١٢) .

هكذا كانت بداية الترك مع الحضارة الاسلامية ، وقد استمر التدهور فى العصر العثمانى ، لأن العثمانيين لم يكونوا أحسن حالا فى موقفهم من التراث العربى من العناصر التى سبقتهم ، فالعثمانيون قد احتفظوا بتركيتهم ، ومن ثم كانوا أكثر سلبية وبعدا عن التراث العربى من العناصر التركية التى سبقتهم فى حكم المنطقة العربية ، لأن تلك العناصر تعربت ، فالمماليك حكموا من خلال قاعدة عريضة من العناصر العربية الوطنية ، كما ظلت اللغة العربية هى لغة الدولة ، ولغة التجارة والمعاملات ، بينما تغير الوضع فى العصر العثمانى ، حين أصبحت اللغة التركية هى اللغة الرسمية للدولة والحكم(١٣) .

وفى نفس الوقت جدت عوامل جديدة ، ساعدت على استمرار التدهور فى العصر العثمانى ، من ذلك تلك العزلة التى فرضت على المنطقة ، بسبب الحصار الاقتصادى ، الذى ضربه البرتغاليون على المنطقة مع بداية القرن السادس عشر ، فى أعقاب كشف الطريق التجارى الى الهند ، عبر رأس الرجاء الصالح(١٤٩٨ م)، ومالبث هذا الحصار أن تحول الى حصار شامل ، شمل الفكر

والحضارة ، بعد أن عمل العثمانيون من جانبهم على دعم هذا الاتجاه ، فاقفلوا الملاحة فى البحر الأحمر أمام السفن الأوربية ، خوفا من تهديد الأماكن الاسلامية المقدسة ، خصوصا بعد فشل حملتهم على الهند فى عام ١٥٣٨ م ، وراحوا يعارضون أى محاولة لاعادة الطرق العالمية الى البحر الأحمر .

وفى الحقيقة ، فان خوف العثمانيين من خطر الاستعمار الغربى الماثل على حدود المشـــــرق العربى ، منذ بداية القرن السادس عشر ، جعلهم يمعنون فى سـياسة الحذر، فأحاطوا الشرق الأدنى بسياج منيع من العزلة ، وحالوا بينه وبين العالم الخارجى ، ولم تكن عزلة المنطقة خلال العصر العثمانى الأول (من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر) ، سياسية واقتصادية فحسب ، بل تحولت الى عزلة حضارية أيضا ، فلم يصل الشرق العربى خلال تلك الفترة أى عنصر من العناصــر المكونة للحضارة الغربية(١٤) ، التى كانت تسير بخطى سريعة فى طريق التقدم فيما بين القرن السادس عشر ونهاية القرن الثامن عشر ، بينما كانت البلاد الاسلامية قد اسـتبدلت ببيوت الحكمة خوانق الدراويش ، وبالتصـــوف الفلســـفى تكايا الطـــرق الصوفية(١٥) .

وكان مما ســاعد على تأكيد عزلة العالم العربى خلال تلك الفترة ، شعور من الشك والريبة شاع فى البلاد الاسلامية ازاء الفرنجة ، ابان الحروب الصليبية ، وفى أعقابها .

فاذا أضفنا الى ذلك أن الدولة العثمانية كانت دولة محافظة ، لا ترحب بأى تجديد فى النظم القائمة أو فى الفكر ، فأصـحاب الأفكار الجديدة من الولاة لا يحوزون رضاء السلطة العثمانية ، بل ربما كانوا موضع سخطها(١٦) . كذلك كان المصـــلحون يلقون

الاضطهاد والتشريد ، وقصة ذلك الواعظ التركى ، الذى حضر الى القاهرة فى رمضان من عام ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) شاهدة على ذلك ، فقد أخذ ذلك الواعظ يعظ الناس بجامع المؤيد بالقاهرة ، مستنكراً ما يمارسه أهل مصر من بدع عند أضرحة الأولياء ، مثل ايقاد الشموع والقناديل ، وتقبيل الأعتاب ، واقامة القباب وغير ذلك ، واعتبره كفرا يجب تركه ، وحمل ولاة الأمور فى القاهرة مسئولية القضاء عليه ، واجتمع عليه عدد كبير من الناس ، ويقول الجبرتى أن سلطات القاهرة قررت نفيه من المدينة ، وحركت جندها للقضاء على العناصر التى التفت حوله ، فضربت بعضهم ونفت البعض الآخر ، بعد أن اعتبرتهم السلطات العثمانية متعصبين(١٣) .

وفى النهاية ، فان القلاقل والاضطرابات التى شهدتها الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى ، بسبب فتن الجند ، والصراعات بين المماليك وغيرهم من القوى المحلية ، تسببت فى اتلاف كثير من الكتب والمكتبات ، وتسرب ما بقى منها الى خارج المنطقة ، فالجبرتى يذكر أن معظم كتب التاريخ التى كانت معروفة فى مصر قبل عهده ، أصبحت « أسماء على غير مسميات » ، ولم يبق منها « إلا بعض أجزاء مدشتة بقيت فى بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس ، مما تداولته أيدى الصحافيين (باعة الكتب فى ذلك الوقت) ، وباعها القومة والمباشرون ، ونقلت الى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايا فى الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدوا الى بلادهم »(١٨) .

وعلى ذلك فان هذه العوامل قد أدت الى تحول التوقف الذى بدأت ملامحه تزحف على الفكر الاسلامى منذ القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) الى جمود ، ثم الى تراجع .

ذلك أنه عندما استقرت المذاهب الأربعة فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، أصبحت هى المصادر المقررة فى الشريعة الاسلامية ، وأصبح كل خروج عنها بدعة ، وكان من نتيجة ذلك أن طرح باب الاجتهاد بالتدريج ، وشيئا فشيئا حل التقليد محل الاجتهاد والتجديد .

وقد بدأ هذا الاتجاه عندما خشى الفقهاء المتمسكون بحرفية الدين ، أن يؤدى توسيع باب الاجتهاد الى فتح الطريق للتأويلات الفردية(١٩) . ذلك لأن التقليد فى البداية كان يعكس اتجاها ، يهدف الى تضييق شـــقة الخلاف بين الفقهاء ، حول القضايا الجوهرية فى الاسلام ، وادى ذلك الاتجاه تدريجا الى تضييق نطاق الاجتهاد ، على اعتبار أن أجيالا متعاقبة من الفقهاء يساندهم الاجماع ، قد سدوا كل الثغرات فى التشريع الاسلامى ، وأنه بالتالى لم تعد توجد ثغرات جوهرية ، تحتاج لمزيد من الاجتهاد ، ومن ثم أقفل باب الاجتهاد فى الدين ، وأصبح على العلماء اللاحقين أن يتقبلوا أحكام الائمة الأربعة طبقا للمذهب الذى يأخذون به ، وأطلق على هذا الاتجاه اسم التقليد ، وأصبح على الأجيال التالية من العلماء أن يتوخوا الدقة فى الأخذ بالسوابق ، التى أستنها السلف ، فيما يتعلق باصدار الأحكام ، وكانت النتيجة هى توقف التفكير الاسلامى ، وتفشى التقليد ، والجمود فى علوم الشريعة ، وسائر العلوم الدينية ، ومالبث هذا الاتجاه أن زحف على العلوم العقلية أيضا(٢٠) .

والحقيقة أن الحكم الاستبدادى قد شجع هذه الاتجاهات المحافظة فى الفكر الاسلامى ، فقد مال الخلفاء فى العصور المتأخرة الى تقريب اتباع الفكر المحافظ ، وأقصوا عنهم المفكرين الأحرار ، خاصـــة حين باتت الحكومة فى الدولة العباســـية ذات طابع استبدادى ، فرسخت عقائد الدين متشـــحة بالتقاليد ، وقررت

حدودها ، واضطهدت أتباع الفكر الحر شر اضطهاد ، وما كاد يحل القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) ، حتى قضى على كلُّ فكر مبتكر(٢١) . وكان ذلك يعنى انتصار المدرسة النقلية ، على المدرسة العقلية ، ومن ثم بدأت عمليات المطاردة للفكر العقلانى ، وللعناصر المطالبة بالتجديد ، فالمصادر تشير الى أن الفترة المتأخرة من العصر العباسى الثانى ، قد شهدت عمليات اضطهاد للفكر والمفكرين ، فقد أحرقت كتب ابن عبد السلام البغدادى ، فى أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، فى عهد الخليفة الناصر لدين الله ، لا لشىء ، الا لأنه كان يرجع الى كتب الفلسفة ، كذلك أحرقت فى تلك الفترة بعض كتب الحسن بن الهيثم فى الفلك(٢٢) ، وفى القرن التالى سجن ابن تيمية فى دمشق حتى الموت ، عندما حاول الثورة على انحرافات الصوفيين فى الفكر والممارسة ، وكان وقوف علماء السنة من المذاهب الأربعة ، الى جانب السلطة ضد ابن تيمية ، يعنى أن علماء العصر قد قبلوا البدع التى أدخلها بعض المتصوفين على الاسلام ، وقبلوا التعايش معها ، ومن ثم تغلغلت أفكار الصوفية فى الحياة الدينية والاجتماعية فى الفترة التالية ، وقد بلغ التوافق بين علماء الدين وأصحاب الطرق الصوفية قمته فى القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد (الحادى عشر والثانى عشر للهجرة)(٢٣) .

وعلى ذلك ، فانه ما كاد يحل القرن الثامن عشر الميلادى ، حتى كانت الوحدانية قد ألبست ظلالا من الخرافة وقشور الصوفية، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء ، الذين يخرجون من مكان الى مكان ، حاملين فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ، موهمين الناس بالباطل والشبهات ، يرغبونهم فى الحج الى قبور الأولياء التماسا للشفاعة منهم(٢٤) .

برز هؤلاء كقادة للفكر ، كنتيجة لزحف التصوف على الحياة العقلية ، بعد أن انحط التصوف ، وتحول من فلسفة الى دروشة .

وهكذا انحط مستوى العلماء الفكرى ، ليتدنى الى مستوى العامة(٢٥) ، ووقف الجهد العلمى عند الجمع والتصنيف والتدوين والاعداد والتهذيب والتنقيح ، وتميز العصـــر بالحفظ والتقديس للتراث ، والتراث غير العقلانى بالذات ، ولم تتعد الاضافات نطاق الشروح والحواشى ، التى وضعت على المتون(٢٦) .

وقد زحف هذا الجمود والتخلف ، على نواحى الحياة المختلفة، لدرجة أن انشاء مطبعة حديثة فى استانبول عام ١١٢٤ هـ (١٧١٢م) احتاج الى فتوى من شيخ الاسلام ، وتطلب ذلك تدخل السلطان العثمانى شخصيا ، لاصدار مثل هذه الفتوى ، التى جاءت مشروطة بعدم طبع القرآن وكتب التفسير والحديث على هذه المطبعة ، لأنها كتب دينية ، ويخشى عليها من التحريف(٢٧) .

مظـــاهر نقـــد ثقـــافة المجتمع

فى تناوله للحياة الفكرية والثقافية فى مصر تعرض الجبرتى بالنقد لظاهرتين رئيسيتين **أولاهما** : تدهور الحياة الفكرية بشقيها من العلوم الدينية والعلوم العقلية ، اما الظاهرة **الثانية** : فهى الانحرافات التى ظهرت فى الحياة الدينية وممارسة العقيدة وهى انحرافات تناولها الجبرتى خلال حديثه عن الحركة الصوفية المتأخرة وما لحق بها من بدع وخرافات .

وأهمية ما كتبه الجبرتى فى هذا المجال أن المجتمع المصرى فى ذلك الوقت لم يكن يختلف كثيرا عن غـــيره من المجتمعـــات الاسلامية بسبب وحدة الفكر والثقافة الناتجة من وحدة الحضارة

الاسلامية ، ولأن العثمانيين حافظوا على الوحدة السياسية للمنطقة حتى نهاية القرن الثامن عشر .

وفيما يتعلق بالظاهرة الأولى وهى تدهور الحياة الفكرية نستطيع أن نستخلص مما كتبه الجبرتى حول هذا الموضوع أربعة أسباب ساهمت فى هذا التدهور : الأول سبب عام ذكره الجبرتى فى معرض حديثه عن أسباب تدهور علم التاريخ وهو كثرة الفتن والقلاقل فى عصره مما أدى الى اختفاء كثير من الكتب التى كانت معروفة من قبل كما سبق أن أشرنا(٢٨) .

السبب الثانى يتصل بنوعية العلماء خلال تلك الفترة وتكالب بعضهم على الدنيا ، يتضح ذلك مما كتبه الجبرتى من ترجمات لعلماء عصره ، فهو يقول مثلا عند ترجمته لحياة الشيخ عبد الله الشرقاوى (ت ١٢٢٧ هـ/١٨١٢ م) « واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها » وهو يؤكد هذه الحقيقة مرة أخرى فيما أورده من شعر الشيخ حسن البدرى(٢٩) .

وتؤكد المصادر أن بعض العلماء كانت لهم أنشطة اقتصادية متنوعة مثل نظارة الوقف وحيازة الالتزامات والعمل بالتجارة وهى أنشطة شغلتهم عن متابعة العلم والبحث ، مما جعل الجبرتى يطلق عليهم اسم « مشايخ الوقت »(٣٠) .

أما السبب الثالث لتدهور الحياة الفكرية فهو يتعلق بظاهرة توريث الوظائف العلمية أى وراثة الابن لمنصب والده حتى لو لم تكن له قدراته العلمية وما يؤهله لذلك ، وهى ظاهرة تسللت للحياة العلمية من نظام طوائف الحرف حين كان الابن يرث حرفة أبيه ، ولأن التعليم فى ذلك الوقت انحدر الى مستوى الحرفة فقد أصبحت هذه الظاهرة معترفا بها فى أوساط العلماء ، واذا حدث

أن لم يكن فى بيت العالم المتوفى من تعلم فى الأزهر دفع العلماء بواحد من آل بيته للتعلم والارتفاع الى مستوى العلماء(٣١) .

ومن ذلك انه لما توفى الشيخ احمد الجوهرى (ت ١٢١٥ هـ/ ١٨٠٠ م) فرضوا على أخيه عبد الفتاح أن يخلفه ، ويقول الجبرتى انه « لم يكن معنيا بالعلم ولم يلبس زى الفقهاء وكان يعانى التجارة (اى يعمل بها) ويشارك ويضارب ويحاسب ويكاتب ، فلما مات أخوه الأكبر الشيخ أحمد وأمتنع أخوه الأصغر الشيخ محمد من التصدر للاقراء فى محله اتفق الحال على تقدم المترجم حفاظا على الناموس وبقاء لصورة العلم الموروث فعند ذلك تزيى بزى الفقهاء ولبس التاج والفراجة الواسعة واقبل على مطالعة العلم وخالط أهله وصار يطالع ويذاكر وقرأ دروس الحديث بالمشهد الحسينى فى رمضان مع قلة بضاعته وذلك بمعونة الشيخ مصطفى بن الشيخ محمد الفرماوى »(٣٢) .

أما السبب الأخير فهو موقف كبار العلماء الرسميين المناهض لأصحاب الأفكار الجديدة المطالبة بالاصـــلاح ، فقد ذكر الجبرتى عند حديثه عن الواعظ التركى الذى دعا الى ترك البدع والممارسات الخاطئة فى العقيدة والأفكار السائدة حول كرامات الأولياء ، ذكر الجبرتى أن كبار علماء الأزهر ممن يشغلون الوظائف الرسمية هم الذين أفتوا ببطلان كلام ذلك الواعظ وحرضوا السلطة على طرده وتشتيت أتباعه(٣٣) .

وقد عرض الجبرتى لكثير من مظاهر الجمود والتخلف الفكرى من خلال عرضه لنماذج من علماء عصره خصوصا المتصوفة منهم ، مستشهدا فى أكثر من موضع بشعر المعاصرين من أمثال الشيخ حسن البدرى الحجازى الذى ترجم له الجبرتى ووصفه بأنه كان

ناقداً لأوضاع عصره(٣٤) ، وقد أرجع الجبرتى فساد الأخلاق العامة والتدهور العام الذى أصاب الحياة الفكرية فى سائر البلاد الى جهل هؤلاء العلماء الذين يتصدرون للفتوى والوعظ والذين لا يعرفون حتى مجرد التمييز بين الحلال والحرام(٣٥) . وقد ذكر أن احد هؤلاء العلماء الذين دأبوا على الفتوى بغير علم قد طلق امرأة من زوجها الذى غاب عنها لفترة وزوجها من آخر على الرغم من أن الزوج كان قد ترك لها ما يكفيها ، فلما حضر الزوج الأول ووجد زوجته قد تزوجت من غيره قدم شكوى للأمير يوسف الكبير (ت ١١٩١ هـ/١٧٧٧ م) الذى أمر بحبس ذلك العالم(٣٦) .

وقد أوضح الجبرتى الى أى مدى تدهور مستوى علماء الدين خلال حديثه عن ذلك الواعظ التركى الذى رفض فكرة أن يكون للأولياء كرامات بعد وفاتهم فيقول الجبرتى ان بعض الناس « عندما سمعوا ذلك القول وذهبوا الى العلماء بالأزهر وأخبروهم بقول ذلك الواعظ وكتبوا فتوى وأجاب عليها الشيخ احمد النفراوى والشيخ أحمد الخليفى بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت وان انكاره (الواعظ) على اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ لا يجوز ويجب على الحاكم زجره »(٣٧) .

ولكن ذلك لا يعنى ان كل علماء العصر كانوا على هذا المستوى من التخلف فقد أورد الجبرتى نماذج أخرى مشرفة لبعض علماء العصر من هؤلاء الشيخ مرتضى الزبيدى صاحب موسوعة تاج العروس الذى كان موضع اعجاب الجبرتى(٣٨) .

لكن يفهم مما كتبه الجبرتى ان تخلف العلوم العقلية كان أكثر وضوحا وقد عبر عن هذه الحقيقة فى ذلك الحوار الذى أورده بين علماء الأزهر وأحمد باشا الذى عين واليا على مصر فى عام

١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) وكان من المهتمين بالعلوم الرياضية . فعند وصوله الى مصر حضرت جمهرة من علماء الأزهر على رأسهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر للترحيب به فسألهم الوالى عن العلوم الرياضية لكنهم احجموا عن الاجابة وفى جلسة تالية اجتمع الوالى بالشيخ الشبراوى وقال له « المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق الى المجىء اليها فلما جئتها وجدتها كما قيل تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، فقال الشيخ الشبراوى هى يامولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف فقال الوالى : وأين هى وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئا وغاية تحصيلكم الفقه والمنقول والوسائل ونبذتهم المقاصد فقال نحن لسنا أعظم علمائها وانما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند ارباب الدولة والحكام وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب والغبار فقال له وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وفى أوقات الصوم والأهلة وغير ذلك فقال نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين وهذه العلوم تحتاج الى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كرقة الطبيعة وحسن الوضع والرسم والتشكيل والأمور العطاردية وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك(٣٩) .

ويذكر الجبرتى بعد ذلك أن الوالى سأل عن البعض الذى لديه علم بالعلوم العقلية فدلوه على والده الشيخ حسن الجبرتى .

تلك الصورة توضح الى أى حد تدهورت العلوم العقلية لكن لا يعنى ان التدهور فى الحياة العقلية كان شاملا ، فالجبرتى

تحدث عن بعض العلماء الذين كانت لهم اهتمامات بالعلوم العقلية والرياضية مثل والده الشيخ حسن الجبرتى الذي كانت له اهتمامات واسعة فى هذه العلوم(٤٠) .

ومن بين العلوم التى تدهورت فى القرن الثامن عشر والتى اشار اليها الجبرتى علم التاريخ ، ويرجع الجبرتى أسباب تدهور هذا العلم الى عدم اهتمام أبناء عصره بدراسة التاريخ ونظرتهم الهابطة الى ذلك النوع من المعرفة ، فهو يقول « ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الانسانى تعتنى بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا من بعد خلف الى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شغل البطالين وقالوا أساطير الأولين » ويستطرد الجبرتى فيقول « ولعمــرى أنهم المعــذورون وبالأهم مشغولون ولا يرضون لأقلامهم المتعبة فى مثل هذه المنقبة فان الزمان قد انعكست أحواله وانخرمت قواعده فى الحســاب فلا تضبط وقائعه فى دفتر ولا كتاب واشــغال الوقت فى غير فائدة ضياع وما مضى ليس له استرجاع الا أن يكون مثل الحقير منزويا فى زوايا الخمول والاهمال »(٤١) .

اما الظاهرة الاخرى التى تناولها الجبرتى بالنقد فى هذا المجال فهى ظاهرة الانحراف فى الطرق الصوفية ، وقد استهل الجبرتى هذه القضية موضحا أن الخطر الذى تهدد الحياة الفكرية والدينية على عهده هو التخلف والجمود الذى حمل لواءه أدعياء التصوف الذين تظاهروا بالتصوف واتخذوه مبررا للهرب من الحياة الجادة ووسيلة للتغرير بالعامة فكثر الأدعياء الذين لبسوا مسوح الصـــوفية ، ثم اندس هذا الفريق المنحرف بين الناس يروجون الاباطيل ويستخدمون مصطلحات يعجز الرجل العادى عن فهمها بدعوى انها اسرار لا يرقى اليها الا الخاصة ولا دخل للعقل فى

ادراكها ، وحرص الجبرتى على أن يفرق فى الصورة التى رسمها بين أولئك المنحـــرفين والزاهدبن الحقيقيين وذلك على نحو ما شهده بنفسه من افعال كل من الفريقين ، وجاءت الصورة التى رسمها للعناصر المنحرفة دقيقة التفاصيل فأســهب فى وصــف مواكب اولئك المنحرفين من دعاة التصوف وقدرتهم على اجتذاب الناس من شتى الطبقات رجالا ونساء وأطفالا(٤٢) .

ويذكر الجبرتى أن بعضهم كان يســير عريانا فى الطرقات يتبعهم الأطفال فهو يقول « ان السيد على البكرى (ت ١٢٠٧ هـ/ ١٧٨٢ م) كان فى بداية حياته يمشى فى الطرقات عريانا ويخلط فى كلامه وبيده نبوت طويل فى أغلب أوقاته . وكان يحلق لحيته وللناس به اعتقاد عظيم وينصتون الى تخيلاته ويوجهون الفاظه ويؤولونها على حسب أغراضهم ومقتضيات أحوالهم ووقائعهم وكان له اخ من مساتير الناس فحجر عليه ومنعه من الخروج والبسه ثيابا ورغب الناس فى زيارته وذكر مكاشفاته وخوارق كراماته فأقبل الناس عليه من كل ناحية وترددوا لزيارته من كل جهة وأتوا اليه بالهدايا والنذور وجروا على عوائدهم بالتقليد وازدحم عليه الخلائق وخصوصا النساء فراج بذلك أمر أخيه واتسعت دنياه ونصبه شبكة لصيده ومنعه من حلق لحيته فنبتت وعظمت وسمن بدنه وعظم جسمه من كثرة الأكل والراحة وقد كان قبل ذلك عريانا شقيانا يبيت غالب لياليه بالجوع طاويا » .. ويقول أنه بعد موته « أقام الناس على قبره مقصورة واجتمعوا عند مدفنه فى ليال وميعادات وقراء ومنشدين وتزدحم عنده أصناف الخلائق ويختلط النساء بالرجال »(٤٣) .

وقد ذكر الجبرتى نموذجا آخر صارخا لهذا النوع من المتصوفة فيما رواه عن الشيخ صادومة الذي قال عنه الجبرتي أنه « كان له

باع طويل فى الروحنيات وتحريك الجمادات والسيميات ويكلم الجن ويخاطبهم مشافهة ويظهرهم للعيان » ويقول « كما أخبرنى من شاهده وللناس اختلاف فى شأنه » .

وأوضح الجبرتى خطورة هؤلاء الناس وذلك لأنهم استطاعوا ان يجتذبوا اليهم نفرا من كبار الفقهاء جمعتهم بهم مصلحة مشتركة وكان ذلك النفر من الفقهاء يروج لمثل هؤلاء المتصوفة وكرامتهم ، فقد ذكر الجبرتى أن الشيخ حسن الكفراوى الذى تولى منصب افتاء الشافعية كان من أتباع الشيخ صادومة « وله به التئام وعشرة ومحبة أكيدة واعتقـــاد عظيم ويخبر عنه أنه من الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات بل يقول أنه هو الفرد الجامع ونوه بشأنه عند الأمراء خصوصا محمد بك أبو الدهب فراج حال كل منهما بالآخر » . ويقول الجبرتى « أنه حدث أن اختلى الأمير يوسف الكبير بمحظيته فرأى على سوءتها كتابة فسألها عن ذلك وتهددها بالقتل فأخبرته ان المرأة الفلانية ذهبت بها الى هذا الشيخ وهو الذى كتب لها ذلك ليحببها الى سيدها فنزل فى الحال وأرسل فقبض على الشيخ صادومة وأمر بقتله والقائه فى البحر ففعلوا به ذلك »(٤٤) .

وأمام هذه الدرجة من التدهور كان طبيعيا أن يظهر الكثير من أدعياء التصوف ، فالجبرتى يذكر فى حوادث شهر جمادى الثانية عام ١١١٠ هـ انه « ظهر رجل من أهل الفيوم يدعى بالعليمى قدم الى القاهرة واقام بظهر القهوة المواجهة لسبيل المؤمن فاجتمع عليه كثير من العوام وادعوا فيه الولاية وأقبلت عليه الناس من كل جهة واختلط النساء بالرجال وكان يحصل بسببه مفاسد عظيمة فقامت عليه العساكر وقتلوه »(٤٥) .

وأصبحت هذه الظاهرة تتكرر فالجبرتى يذكر فى حوادث شهر جمادى الثانية عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) انه ظهر « رجل بناحية بنها العسل يدعى الشـــــيخ سليمان فأقام مدة فى عشه بالغيط واعتقد فيه الناس الولاية والسلوك والجذب فاجتمع اليه الكثير من أهل القرى وأكثرهم الأحداث ونصبوا له خيمة وأقبلت عليه أهل القرى بالنذور والهدايا وصار يكتب الى النواحى أوراقا يستدعى منهم القمح والدقيق ويرسلها مع المريدين .. وصـــــار له عدة اخصاص واجتمع لديه من المردان نحو المائة والستين أمرد وغالبهم أولاد مشايخ البلاد .. وعمل للمردان عقودا من الخرز الملون فى اعناقهم ولبعضهم أقراطا فى آذانهم »(٤٦) .

والحركة الصوفية من هذا المنظور أصبحت فى بعض جوانبها ظاهرة اجتماعية واقتصادية أكثر منها ظاهرة دينية أو فلسفية ، وأصبحت تتصل بالحياة الاقتصادية والسياسية ، فهى وســـيلة للهرب من ظلم الحكام وطغيانهم ، وهرب الفلاحين من ظلم الملتزمين وجباة الضرائب ، ثم هى وسيلة للتغلب على مشكلة الجوع فى سنوات القحط(٤٧) . لقد ألقت الحركة الصوفية بصورتها هذه ظلا كثيفا على الحياة الدينية والفكرية ، فظاهرة الأضرحة والموالد وما كان يحدث فيها من بدع وانحرافات قد ارتبطت الى حد كبير بهذا النوع من الصوفية المتأخرة ، وقد ربط الجبرتى بين الظاهرتين بشكل واضح . فهو يذكر عند ترجمته لحياة الشيخ عبد الوهاب ابن عبد السلام أحد مشايخ الطرق الصـــــوفية الذى توفى عام ١١٧٢ هـ (١٧٥٨ م) أنه عقب وفاته حدث سيل عظيم هدم قبره وبعض القبور المجاورة « فاجتمع أولاده ومريدوه وبنوا له قبرا فى العلوة وعملوا له مقصورة ومقاما من داخلها وعليه عمامة كبيرة وصيروه مزارا عظيما يقصد للزيارة ويختلط به الرجال والنساء .. ثم انهم ابتدعوا له موسما وعيدا فى كل سنة يدعون اليه الناس

من البلاد القبلية والبحرية فينصبون خياما كثيرة ومطابخ وقهاوى ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخواصهم وعوامهم وفلاحى الأرياف وأرباب الملاهى والملاعيب والفوازى البغـــايا والقرادين والحواة » . ويستطرد الجبرتى فيصور ما كان يحدث فى هذه الموالد من انحرافات وخروج عن مبادىء الدين والأخلاق من جراء وجود مثل هذا الحشد من أخلاط الناس فيقول « فيملأون الصحراء والبستان فيطأون القبور ويوقدون عليها النيران ويصبون عليها القاذورات ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون الطبول والزمور ليلا ونهارا ويستمر ذلك نحو عشرة ايام وأكثر »(٤٨) .

ويصور الجبرتى فى موضع آخر كيف نشأ مولد الحسين فى القاهرة فيقول ان الذى ابتدعه السيد بدوى بن فتيح مباشر وقف المشهد الحسينى بعد أن أصيب بمرض فنذر أن يقيم هذا المولد لو شفاه الله فلما تحسنت صحته بعض الشىء شرع فى اقامة هذا المولد « وأوقد فى المسجد والقبة قناديل وبعض الشموع ورتب فقهاء يقرأون القرآن بالنهار مدارسة وآخرين يقرأون بالليل دلائل الخيرات للجزولى ثم زاد الحال وانضم اليهم كثير من أهل البدع كجماعة العفيفى والسمان والعربى والعيسوية » . ويصف الجبرتى أوضـــاع المسجد الحسينى وانتهاك حرمته فى ظروف هذا المولد فيقول مستطردا : « هذا مع ما ينضم الى ذلك من جمع العوام وتحلقهم (جلوسهم فى شكل حلقات) بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك والتلفت الى حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعى خلفهم والافتتان بهم ورمى قشور اللب والمكسرات والمأكولات فى المسجد وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه وسقاء الماء فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقا بالأسواق المتهنة ولا حول ولا قوة الا بالله »(٤٩) .

ويستطرد الجبرتى فيصور مواكب الطرق الصوفية فى مثل هذه الموالد وماتضمه من اخلاط الناس من خلال حديثه عن مولد الحسين فى شعبان عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) فيقول : « ثم زاد الحال على ذلك بقدوم جماعة الاشاير كان لكل طريقة صوفية اشارة معينة) من الحارات القريبة والبعيدة وبين أيديهم مناور القناديل والجوامع العظيمة التى تحملها الرجال والشموع والطبول والزمور ويتكلمون بكلام محرف يظنون أنه ذكر وتوسلات يثابون عليها وينسبون من يلومهم أو يعترضهم الى الاعتزال والخروج والزندقة وغالبهم السوقة وأهل الحرف السافلة »(٥٠) . وينبه الجبرتى الى ان الفرنسيين قد شجعوا مثل هذه البدع حتى ينصرف الناس عن التفكير فى الأوضاع السياسية والاقتصادية الناجمة عن الاحتلال الفرنسى وحصار الأسطول الانجليزى للشواطىء المصرية فيقول « وانقضى شهر شعبان وحوادثه فمنها أن أهل مصر جروا على عادتهم فى بدعهم التى كانوا عليها وانكمشوا عن بعضها واحتشموها خوفا من الفرنسيس فلما تدرجوا فيها وأطلق لهم الفرنساوية القيد ورخصوا لهم وسايروهم رجعوا اليها وانهمكوا فى عمل موالد الأضرحة التى يرون فرضيتها وانها قربة تنجيهم بزعمهم من المهالك وتقربهم الى الله زلفى فى المسالك فرمحوا فى غفلاتهم مع ما هم فيه من الأسر وكساد غالب البضائع وغلوها وانقطاع الأخبار ومنع الجالب (الوارد) ووقوف الانجليز فى البحر وشدة حجزهم على الصادر والوارد حتى غلت أسعار جميع الأصناف المجلوبة من البحر الرومى وانقطع أثر كثير من أرباب الصنائع التى كسدت »(٥١) .

أما الشيخ عبد الله الشرقاوى الذى كان شيخا للأزهر فيقول الجبرتى أن أهله ابتدعوا له مولدا عقب وفاته (١٢٢٧ هـ/١٨١٢م) »

« وكتبوا بذلك فرمانا من الباشا ونادى به تابع الشرطة بأسواق المدينة على الناس بالاجتماع والحضور لذلك المولد وكتبوا أوراقا ورسائل للأعيان وأصحاب المظاهر وغيرهم بالحضور وذبحوا ذبائح واحضروا طباخين وفراشين ومدوا اسمطة بها انواع الأطعمة والحلاوات والمحمرات والخشافات لمن حضر من الفقهاء والمشايخ والأعيان وأرباب الاشاير والبدع ونصبوا قبالة تلك القبة صوارى علقوا بها قناديل وبيارق وشراريب حمراء وصفراء يلوحها الريح واجتمع حول ذلك من غوغاء الناس وعملوا قهاوى وبياعى الحلو والمخللات والترمس الملح والفول المقلى ودهسوا ما بتلك البقعة من قبور الأموات وأوقدوا النيران وصبوا عليها القاذورات مع ما يلحقهم من البول والغائط »(٥٢) .

ان رؤية الجبرتى للطرق الصوفية وما وصلت اليه خلال عصره تظهر من خلال وصفه لها بالطرق الشيطانية عند حديثه عن محاولة عثمان أغا اعادة بناء مشهد زيد بن على زين العابدين ابن الحسين فى عام ١٢٥٥ هـ(١٨١٠ م) فهو يقول : « ومن الحوادث البدعية من هذا القبيل ان عثمان أغا المتولى أغات مستحفظان سولت له نفسه عمارة مشهد الرأس وهو رأس زيد ابن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ويعرف هذا المشهد عند العامة بزين العابدين وبذلك اشتهر فلما كانت الحوادث ومجىء الفرنسيس أهملوا ذلك وتخرب المشهد واهيلت عليه الاتربة فاجتهد عثمان أغا المذكور فى تعمير ذلك وزخرفه وبيضه وعمل به سترا وتاجا ليوضعا على المقام وارسل فنادى على أهل الطرق الشيطانية المعروفة بالاشاير وهم السوقة ، وارباب الحرف المرذولة الذين ينسبون انفسهم لأرباب الضرائح المشهورين كالأحمدية والرفاعية والقادرية والبراهمية ونحو ذلك .. ثم انهم اجتمعوا فى يوم الأحد خامس عشرينه

بأنواع من الطبول والزمامير والبيارق والأعـلام .. حتى ملأوا النواحى والأسواق .. ويصـحبهم الكثير من الفقهاء والمتعممين والأغا المذكور راكب معهم .. »(٥٣) .

وقد اوضح الجبرتى أن أخطر ما فى هذه الظواهر المرضية أنها لم تكن موضع استنكار علماء عصره بل على العكس من ذلك كانت موضع رضاهم ومشاركتهم فقد كان يحضر هذه الموالد الكثير من العلماء والفقهاء ويقتدى بهم فى ذلك الأمراء وعلية القوم .. ففى حديثه عن مولد الشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام — الذى سبق أن اشرنا اليه — يقول الجبرتى « .. ويجتمع لذلك أيضا الفقهاء والعلماء وينصبون لهم خياما أيضا ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير انكار بل يعتقدون أن ذلك قربة وعبادة ولو لم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلا عن كونهم يفعلونه فالله يتولى هدانا أجمعين »(٥٤) .

وقد أورد الجبرتى أبياتا عديدة من شعر الشيخ حسن البدرى (ت ١١٣٤ هـ/١٧٢١ م) ينتقد فيها مثل هذه الظواهر(٥٥) .

وفى نقده للمجتمع انتقد الجبرتى العدل على الطريقة العثمانية وذلك على — ما نسميه اليوم حيثيات الحكم فى وقائع قضـية سليمان الحلبى قاتل القائد الفرنسى كليبر فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ ويقول الجبرتى أنه رأى تدوين الواقعة وكيفية الحكم فيها لما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين وحول حيثيات القضية يقول الجبرتى « وقبضوا — يقصد القاتل — وقرروه ولم يعجلوا بقتله أو قتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة،

ثم أحضـــروا من أخبر عنهم وســـألوهم على انفرادهم ومجتمعين ونفذوا الحكم بما اقتضاه التحكيم .. بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من افعال أوباش العسكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجرؤهم على هدم البنية الانسانية لمجرد شهوتهم الحيوانية .. »(٥٦) .

وفى موضع آخر ينتقد الجبرتى العقلية الشـــرقية ويعترف بعجزها عن استيعاب علوم العصر وذلك تعليقا على ما شاهده من تجارب فى الكيمياء فى المعهد الذى أقامه الفرنسيون فى حارة النصرية حيث يقول : « .. ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا »(٥٧) .

هذا الاتجاه الناقد للمجتمع وثقافته يمثل جزءا من صـــحوة ثقافية يمكن أن نجد لها مجموعة أسباب على النحو التالى :

١ ــ المجتمع المصرى فى العصر العثمانى قد احتفظ بالكثير من خصائصه التى كانت قائمة فى العصر الســـابق عليه وذلك بسبب سياسة الدولة العثمانية القائمة على الابقاء على الأبنية الاجتماعية والاقتصادية كما تركت المؤسسات التعليمية تعمل بعيدا عن الدولة وبالتالى كانت أقل تأثرا بالتدهور السياسى الذى عانت منه البلاد . وعلى هذا فقد ظل المجتمع المصرى يحتفظ بقدر من التقاليد العلمية والاخلاقية التى عرفتها المجتمعات الاسلامية فى العصور الوسطى ومنها التفانى فى طلب العلم والاغتراب من أجله واحترام العلماء(٥٨) .

٢ ــ الدور الذى لعبه كبار العلماء فى تنشـــــيط الحركة الفكرية فالجبرتى يتحدث عن نشاط فكرى واضح وحلقات دراسية كان ينظمها كبار العلماء لطلابهم من أمثال الشيخ مرتضى الزبيدى

والشيخ حسن الجبرتى ، ويشير الجبرتى الى أن هذه الحلقات الدراسية كانت تعج بالطلاب والعلماء ففى ترجمته لحياة أستاذه الزبيدى ذكر الجبرتى جوانب من النشـــاط العلمى الذى كان يمارسه الزبيدى وطريقته فى تعليم طلابه وفى هذا المجال يقول الجبرتى « ولم يزل المترجم يخدم العلم ويرقى فى درج المعـالى ويحرص على جمع الفنون التى أغفلها المتأخرون كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الأحاديث واتصال طرائق المحدثين المتأخرين بالمتقدمين وألف فى ذلك كتبا ورسائل ومنظومات وأراجيز » .

ويقول الجبرتى ان الشيخ الزبيدى انتقل بعد ذلك من مرحلة الحلقات الدراسية الى القاء الدروس العامة على المتخصـصين وغير المتخصصين وانه وسع دائرة نشاطه حيث أصـبح يلقى دروسا أخرى فى مسجد الحنفى الى جانب مسجد شيخون(٥٩) .

وفى ترجمته لحياة والده أوضح عبد الرحمن الجبرتى كيف كانت تسير علاقة كبار العلماء بطلابهم . وكيف ان بعض الطلاب كان يداوم على طلب العلم أكثر من عشرين عاما يكون خلالها ضيفا على أستاذه وان بعض العلماء كانوا يلازمون والده كل الوقت .

٣ ــ كما يؤكد الجبرتى أن بعض العلماء من أمثال الشيخ على العدوى عندما كان يواجه من طلابه بأسئلة وقضايا لا يستطيع الافتاء فيها كان يوقف درسه ويستسمح طلابه فى أن يسأل من هو أعلم منه بهذا الموضوع ، ثم يعود اليهم بالرأى الصحيح بعد أن يستشير أستاذه(٦٠) . وهى صورة مشرقة لعلماء تلك الفترة واستكمالا لصورة الحياة العلمية خلال تلك الفترة أشار الجبرتى الى أن بعض كبار العلماء كانت لديهم مكتبات خاصة مثل أستاذه الزبيدى ووالده ، وكانت تحـوى كتبـا فى ســـائر العلوم وكان

استخدامها متاحا للطلاب مما أدى الى تلف بعض الكتب أو ضياعها(٦١) .

٤ ـ الدور الذى لعبه كبار التجار فى تنشيط الحركة الفكرية من أمثال أحمد بن محمد الشرايبى (توفى حوالى ١١٧٣ هـ/١٧٥٩م) الذى كان لدى أسرته مكتبة مفتوحة لطلاب العلم للاطلاع أو الاعارة الخارجية ، وما يفقد من الكتب أو يتلف كان يجدد وكانت المكتبة تحوى كتبا فى مختلف العلوم(٦٢) .

ومن ثم أصبح الباحثون يتحدثون عن صحوة ثقافية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أو ما يسميه الباحث الأمريكى بيتر جران بالكلاسيكية الجديدة ، ويقول أنها جاءت لاحقة للتحولات الاقتصادية والاجتماعية التى شهدتها البلاد فى ذلك الوقت ، ويقول ان تحليل الانتاج الفكرى للنصف الثانى من القرن الثامن عشر يتركز فى المجالات القريبة من دراسات الحديث ، مثل التاريخ وعلوم فقه اللغة المقارن ، حيث حققت هذه الدراسات قدرا من التقدم ، تميز بنشر النصوص ومحاكاة النماذج الكلاسيكية، التى ترجع الى عهد ملوك الطوائف فى الأندلس ، ولعب فيها قطاع التجارة دورا واضحا وحيويا ، ويقول بيتر جران أن المرحلة التالية من هذا التطور ، شهدت الاهتمام بعلوم الكلام والجدل والمنطق والعلوم الطبيعية ، وقد حققت هذه العلوم صحوة محلية ، كما أنها سارت فى طريق الاندماج فى اتجاهات علمية أوسع ، كما حدث فى أوربا ، خصوصا البلاد الواقعة على البحر المتوسط(٦٣) .

ودراسة التطور الثقافى فى مصر خلال تلك الفترة ، قد تشف عن حقيقة مهمة ، هى أن عملية التطور واعادة الانتاج ، والاضافة فى مجال الفكر والثقافة اعتمدت الى حد كبير على عملية

التفاعل بين المراكز الثقافية العـــــديدة ، التى كانت تحفـــل بها الامبراطورية العثمانية ، خاصة دمشق واستانبول ، بالاضافة الى القاهرة ، حيث كان الدارسون يرحلون من مكان الى آخر طلبا للعلم والحج والتجارة ، كما كانت دراستهم لا تنقطع فى كل مكان يصلون اليه ، ويمثل الشيخ مرتضى الزبيدى نموذجا لهذه المرحلة (١١٤٥ — ١٢٠٥ هـ/١٧٣٢ — ١٧٩٠ م) ، فقد ارتحل من زبيد فى اليمن الى مكة المكرمة ، حتى انتهى به المطاف الى القاهرة ، التى أقام بها حتى مات(٦٤) .

وقصة كتابة « تراجم القرن الثانى عشر الهجرى » ، تؤكد وحدة المراكز الثقافية فى ذلك الوقت ، ففكرة هذه التراجم نشأت عند الشيخ المرادى مفتى دمشق الذى طلب مساعدة الشيخ الزبيدى فى انجازها ، ورأى الزبيدى الاستعانة بتلميذه الجبرتى فى اعداد تراجم المصريين .

وبعيدا عن اجتهادات بيتر جران ، سوف نلاحظ وجود اتجاه ناقد لما وصلت اليه الأوضاع الفكرية والممارسات الدينية ، التى كان يلجأ اليها البعض ، ويرجع هذا الاتجاه الى بدايات القرن الثامن عشر ، ويمثله بعض الكتاب والشــــعراء ورجال الدين المستنيرين ، من أمثال الشيخ حسن بدر الحجازى (ت ١١٣٤ هـ/ ١٧٢١ م) ، الذى كتب عددا من القصائد فى نقد الممارســـات الدينية ، واوضاع المتصوفة ، وكذلك علماء الأزهر ، وفى واحدة منها يقول :

ليتنـــا لم نعش الى أن رأينـــــا

كل ذى جنـــة لدى الناس قطبـــا

ثم يقول فى قصيدة أخرى :

احذروا أولى التسبيح دالسبحة
والصوف والعكاز والشملة

وفى قصيدة ثالثة ، ينتقد علماء الأزهر بقوله :

الجامع الأزهر ابتلاه رب العلا والوجود
بكل فظ قحف وطرف عليك بالبشر لا يجود
قطعة صخر ليس فيه الا الثقل واليبس والجمود(٦٥)

كذلك نجد صدى لهذا الاتجاه عند ذلك الواعظ الذى دعا فى رمضان من عام ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) ، بمسجد المؤيد بالقاهرة ، الى ترك البدع ، وأنكر كرامة الأولياء بعد موتهم ، وما يقال عن اطلاعهم على اللوح المحفوظ وطلب مناظرة علماء الأزهر فيما يقول ، بعد أن رفض بعضهم مثل هذه الأفكار ، ويبدو أن أفكار وآراء هذا الواعظ قد أزعجت سلطات القاهرة ، وقوبلت بالرفض من قطاع العلماء المحافظين من علماء الأزهر ، بينما لقيت قبولا من بعض جماهير القاهرة ، الأمر الذى دعا سلطات القاهرة للقبض عليه ، ونفيه خارج القاهرة ومطاردة العناصر التى التفت حوله ، حتى لا تحدث فتنة ، حسب رواية الجبرتى(٦٦) .

وعلى هذا فموقف الجبرتى الناقد لهذه الأوضاع ، يمثل جزءا من ذلك الاتجاه الناقد للحياة الثقافية فى بعض جوانبها المتردية ؛ ويلاحظ أن هذا الاتجاه كان يزعج السلطة وأصحاب الاتجاهات المحافظة من علماء الأزهر ، عندما يصبح موضع حوار علنى يكون العامة طرفا فيه .

ويفهم مما كتبه الجبرتى من نقد أنه كان يتطلع لنوع من التغيير . ويصبح السؤال ، فى أى اتجاه كان الجبرتى يرى ذلك التغيير ؟ .

أن أعجاب ألجبرتى ببعض جوانب ألتقدم ألمادى فى ألحضارة الغربية التى شاهدها خلال وجود الفرنسيين فى مصر قد أغرى لويس عوض بالقول بأن الجبرتى كان من واضعى أسس الفكر الحديث مع الشيخ حسن العطار والشيخ الخشاب(٦٧) .

لكن الحقيقة قد تبدو مختلفة ، اذا ما تعرفنا على موقف الجبرتى من التغيرات التى صاحبت وجود الفرنسيين فيما يتعلق بوضع المرأة ، كذلك ما سجله الجبرتى من أخبار وآراء حول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتحركات آل سعود فى جزيرة العرب بعد قيام دولتهم .

ففيما يتعلق بوضع المرأة فى العهد الفرنسى يرفض الجبرتى بشدة مظاهر الخروج عن التقاليد الاسلامية المستقرة فى علاقة الرجل بالمرأة . والجبرتى يتناول هذه الظاهرة بامتعاض شديد فى أكثر من موضع فهو يقول فى أحداث شهر ذى الحجة عام ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) « .. ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء . وهو أنه لما حضر الفرنسيس ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى المزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسقنها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهن وحرافيش العامة فمالت اليهن نفوس أهل الأهواء والنساء الفواحش»(٦٨) .

ثم يقول الجبرتى فى موضع آخر « انه لما أوفى النيل اذرعه ودخل الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيين ومصاحبتهن لهم فى المراكب والرقص والغناء والشرب فى الليل والنهار .. »(٦٩) .

ثم يعرض الجبرتى لنهاية بعض النسوة اللاتى أنسقن وراء الفرنسيين ومنهن زينب ابنة الشيخ البكرى عندما عاد العثمانيون الى مصر(٧٠) .

أن الموقف الفكرى للجبرتى يظهر بشكل اوضح اذا ما استعرضنا الأخبار والآراء التي سجلها فى عجائب الآثار عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتحركات آل سعود فى شبه جزيرة العرب فى مواجهة أشراف مكة ثم فى مواجهة قوات محمد على التى زحفت على جزيرة العرب ابتداء من عام ١٨١١ .

هوامش الفصل الثانى

(١) د . محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الاسلام ، مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م . ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ١٩٣٨/١٩٣٧ ، جـ ٧ ، ص ٥١ .

(٣) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، جـ ٢ ، ص ١١١٩ ، محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، جـ ١ ، ص ٣٢٣ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، جـ ١ ، ص ٤٦٦ .

(٥) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٣١٥ .

(٦) كرد على : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٧) Islam and the Arab World : edited by Bernard Lewis, London, 1976, P. 16.

(٨) د . محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٩) د . محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

(١٠) القلقشندى : جـ ١ ، ص ٤٦٧ .

(١١) أبو شـــــامة : الروضـــتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ، ١٢٨٧ هـ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(١٢) المرجع السابق : ص ٢٦٨ .

(١٣) Islam and the Arab World : P. 16.

(١٤) د . محمد انيس : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(١٥) محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ١٣ .

(١٦) د . محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ١٤٠ ، ١٤٢ .

(١٧) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ جـ ١ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(١٨) عجائب الآثار : جـ ١ ، ص ٦ .

(١٩) Cibb, H.A.R. : Modern Trends in Islam, New York, 1972, P. 114.

(٢٠) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : حركة التجديد الاسلامى فى العالم العربى الحديث ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٢ .

(٢١) المرجع السابق : ص ١٢ ، ١٣ .

(٢٢) د . محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

(٢٣) Gibb : Op. Cit., P. 24.

(٢٤) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، مترجم ، بيروت ، ١٩٧٣ ، جـ ١ ، ص ٢٥٩ .

(٢٥) أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة : القاهرة ، ١٩٧١ ، مقال للدكتور محمد أنيس ، ص ١١١٠ ، ١١١١ .

(٢٦) محمد عمارة ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٢٧) عبد المتعال الصعيدى ، المجددون فى الاسلام من القرن الأول الهجرى الى القرن الرابع عشر ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

(٢٨) عجائب الآثار جـ ١ ، ص ٦ .

(٢٩) عجائب الآثار جـ ٤ ، ص ١٦١ ، جـ ١ ص ٧٩ ، ٨١ .

(٣٠) عبد الرحمن الجبرتى ، دراسات وبحوث ، ص ١٤٨ .

(٣١) المرجع السابق ، ص ٤٠٢ .

(٣٢) عجائب الآثار جـ ٣ ، ص ١٦٦ .

(٣٣) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣٤) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٨١ .

(٣٥) عبد الرحمن الجبرتى ، دراسات وبحوث ، ص ٨٠ .

(٣٦) عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ١٨ .

(٣٧) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٤٨ .

(٣٨) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ص ١٩٦ — ٢١٠ .

(٣٩) عجائب الآثار ، جـ ١ ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٤٠) عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٤١) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٥ .

(٤٢) عبد الرحمن الجبرتى ، دراسات وبحوث ، مقال بقلم الدكتور ابراهيم العدوى ص ٧٦ .

(٤٣) عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ٢٤٨ .

(٤٤) عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ١٧ .

(٤٥) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٤٦) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ص ٦٣ ، ١٦٤ .

(٤٧) د . السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى الى الاحتلال البريطانى (١٥١٧ — ١٨٨٢ م) ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٦٦ .

(٤٨) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ .

(٤٩) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٥٠) المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٥١) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٤٣ .

(٥٢) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ، ص ١٦٣ .

(٥٣) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ١٢٠ .

(٥٤) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٢٢١ .

(٥٥) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٥٦) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ١١٧ .

(٥٧) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٣٦ .

(٥٨) محمد أنيس ، مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٥٩) عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ .

(٦٠) عجائب الآثار ، جـ ١ ص ٣٩٦ .

(٦١) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٣٩٦ .

(٦٢) عجائب الآثار ، جـ١ ، ص ٢٦٥ .

(٦٣) جران : المرجع السابق ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٦٤) أنظر : ترجمة الشيخ الزبيدى فى : عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ١٩٦ — ٢١٠ .

(٦٥) عجائب الآثار : جـ ١ ، ص ٧٨ ، ٨١ .

(٦٦) عجائب الآثار : جـ ١ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٦٧) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية الى عصر اسماعيل ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ١٧٨ .

(٦٨) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ١٦١ .

(٦٩) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ١٦٢ .

(٧٠) عجائب الآثار جـ ٣ ، ص ١٩٢ .

* * *

الفصل الثالث

الجبرتي والفكر السلفي

ينحدر الشيخ محمد بن عبد الوهاب من اسـرة من الفقهاء كانت تقيم فى بلدة العيينة من اقليم نجد(١) ، وعن اسلافه وعلماء بلده تلقى تعليمه الدينى وفق قواعد المذهب الحنبلى الذى كان منتشرا فى نجد ، وفى هذه البيئة البسيطة تعلم فقه الاسلام فى أصوله الواضحة والبسيطة كما وعاها السلف الصالح . وخلال تجواله فى مناطق متعددة من العالم الاسـلامى لطلب العـلم رأى كل هذه الانحرافات التى أشرنا اليها ، ورأى المسـلمين قد انحدروا الى حضيض من الشرك لا يمكن قبوله أو السكوت عليه ، وأدرك أن مثل هذه النفوس التى تذل للحجر والشجر والأرواح لا تستطيع ان تأمر بمعروف أو تنهى عن منكر أو تواجه حاكما ظالما ، وأدرك أن ذلك هو السبب الرئيسى فى أزمة الحكم خلال تلك الفترة ، فقد ذل الناس للحكام بعد أن ذلوا للخشب والحجر والشجر(٢) ، وكانت تلك البدع والخرافات لا تتفق مع أفكاره عن الاسلام السلفى الذى تعلمه ، وكان هاديه فى موقفـه ذلك التراث الفكرى الذى خلفه مجموعة من العلماء الأفذاذ من أمثال أحمد بن حنبل (١٦٤ — ٢٤١ هـ/ ٧٨٠ — ٨٥٥ م) وابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨ هـ/١٢٦٣ — ١٣٢٨م) وابن قيم الجوزية (٦٩١ — ٧٠١ هـ/١٢٩٢ — ١٣٥٠ م) ، ومن هنا كان التحدى الذى واجهه محمد بن عبد الوهاب وهو ما طرا على الاسلام من بدع ومحدثات واضافات سواء كانت هذه المحدثات وليدة الجهل والخرافة او ثمرة الاحتكاك بالمجتمعات المتقدمة ذات الحياة الفكرية المعقدة والمنحرفة فى بعض الأحيان أو مزيجا من المصدرين معا(٣) .

وأدرك أن الشرك قد تسرب الى عقائد المسلمين وانهم أصبحوا يتخذون من الوسائل والوسائط زلفى يتقربون بها الى الله ، وبذلك عادوا الى موقف الجاهلية الأولى عندما كان المشركون يتخذون من الأوثان وسائط تقربهم الى الله . فحكم محمد بن عبد الوهاب على هؤلاء بالشرك ذلك لأنهم — وان وحدوا الله من حيث الوهيته — فانهم أشركوا فى العبادة عن طريق الوسائل التى اتخذوها لتقربهم الى الله(٤) ، وكلها أمور تتعارض مع جوهر العقيدة وهو التوحيد أى اخلاص العبادة لله وحده . ومن ثم ركز ابن عبد الوهاب جهده الفكرى على تنقية عقيدة التوحيد مما شابها من شوائب وانحرافات بعد عصر السلف ، والتوحيد عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب يعنى أيضا وحدة مصدر التشريع وهو الكتاب والسنة فلا مصدر فى التشريع الاسلامى الا كتاب الله وسنة رسوله .

أما الركن الثانى فى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فهو الاجتهاد بشرط عدم مخالفته لنصوص القرآن والسنة الصحيحة ، وكل مستوف لشروط الاجتهاد من علماء المسلمين يمكنه أن يجتهد بل يجب عليه أن يجتهد ، ذلك لأن قفل باب الاجتهاد كان أحد الكوارث التى حلت بالمسلمين وجعلتهم مقلدين جامدين(٥) .

ولم تكن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بهذه الصورة جديدة على الفكر الاسلامى فهى امتداد لمذهب ابن حنبل وابن تيمية وان كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يتبع مذهب أحمد بن حنبل فى جميع الأحوال شأنه فى ذلك شأن ابن تيمية الذى تأثر به ابن عبد الوهاب كثيرا ، فابن تيمية كان يقول بالاجتهاد ولو خالف الحنابلة فى حدود الكتاب وصحيح السنة ، وعنه أخذ ابن عبد الوهاب الاجتهاد والدعوة للاصلاح(٦) .

لكن أهمية الشيخ محمد بن عبد الوهاب تكمن فى أنه لم يكن

مجرد داعية أو صاحب فكر يعلنه ليستقر فى متاحف التراث ولكنه كان يدرك منذ اللحظة الأولى أهمية السلطة أو الدولة فى حماية الفكر ووضع الدعوة موضع التطبيق والممارسة ، ومن ثم كانت مغادرته لبلدته حريملاء التى بدأ فيها دعوته الى العيينة مستعينا بحاكمها ابن معمر لخدمة دعوة التوحيد(٧) ، غير ان ابن معمر لم يستمر فى تأييد الشيخ حتى نهاية الطريق ، فقد تراجع عند أول صدام بالقوى المعادية للدعوة ، ذلك أنه عندما شرع الشيخ محمد ابن عبد الوهاب فى هدم قبة زيد بن الخطاب (ت ١٢ هـ/٦٣٣م) التى كانت مزارا عظيما فى بلدة الجبيلة يعظمه الناس كادت تحدث بسبب ذلك حرب مع أهل الجبيلة وأعقب هدم هذه القبة انتفاضة فى صفوف الاعراب بقيادة سليمان بن شامس هددوا معها حاكم العيينة بالثورة ضده مما جعله يتراجع عن نصرة الشيخ ويتخلى عن تأييد دعوة التوحيد وطلب من الشيخ أن ينجو بنفسه قبل أن يفتك به الغاضبون(٨) ، فغادر الشيخ ابن عبد الوهاب العيينة قاصدا الدرعية حيث لقى أميرها محمد بن سعود الذى رحب به واستجاب لدعوته وكان الحوار الذى دار بينهما فى ذلك اللقاء التاريخى عام ١١٥٨ هـ (١٧٤٥ م) بمثابة تعاقد على تأسيس دولة جديدة فى شبه جزيرة العرب على أسس من الاسلام الصحيح(٩) وعن طريق ذلك التحالف بين العقيدة والسلطة استطاعت الدعوة أن تتجاوز حدود الدرعية واستجابت لها نجد والمناطق التاخمة لها . وخلال هذه العملية النضالية كان الشيخ محور النشاط فهو يكاتب أهل البلاد الأخرى داعيا ، وهو يتصل بالحجاج فى موسم الحج ، ويبت فى الخصومات وفى العلاقات السياسية وفى المعاهدات بين الحكام باعتبار انه أعلم بالدين والأحكام(١٠) .

ومنذ ذلك التاريخ شهدت شبه الجزيرة العربية قيام حركة اصلاحية تتحدى فكر العصور الوسـطى وتنكر خرافتها وتتبنى مبادئها . دولة مالبثت ان راحت تتحدى سلطة خلفاء آل عثمان بعد أن سيطرت على الحجاز ودخلت قواتها المدينة المنورة فى عام ١٢٢٠ هـ/١٨٠٥ م وهدمت قباب قبورها ومزاراتها ، كما خضعت لها مكة فى العام التالى حيث حج الأمير سعود فى نفس العام وأعلن انكار وجود أى سـلطة للخليفة العثمانى على الحرمين الشريفين ، وأعاد المحامل القادمة من الشـام ومصـر والعراق واستانبول لما يصاحبها من بدع .

ولم تكتف الدولةالجديدة بهذا بل راحت تهدد العراق ، ففى عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) دخلت قوات آل سعود كربلاء وهدمت ما بها من قباب ومزارات ، ووصل آل سعود فى بعض غزواتهم الى مشارف بغداد . وعلى ذلك ففى مطلع القرن التاسع عشر كان نفوذ آل سعود قد شمل الحجاز وازال النفوذ العثمانى من الحرمين الشريفين ، وأدركت الدولة العثمانية أنه لم يعد فى مقدور ولاتها فى العراق والشام التصدى لهذا الخطر الذى أصبح يهدد البلدين ، ولذلك اتجهت انظارها الى محمد على واليها على مصر ، الذى استجاب لذلك ابتداء من عام ١٨١١ (١١) .

وقد تمكن محمد على من تحقيق رغبة السلطان العثمانى فى القضاء على الدولة السعودية بعد حرب ضارية استمرت سـبع سنوات (١٢٢٨ — ١٢٣٣ هـ/١٨١١ — ١٨١٨ م) قادها كل من محمد على وأبنيه طوسون وابراهيم(١٢) . واذا كانت الدولة التى أقامها الموحدون قد ضربت على المستوى السياسى فان الدعوة نجحت فى ثورتها على الشوائب والانحرافات التى لحقت بقضية التوحيد ، ومن ثم فتح الطريق للثورة على الجمود والتخلف الذي

خلفته العصور الوسطى ، ذلك أن حركة الاصلاح الدينى التى قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب برفضها للأفكار الموروثة من تراث العصور الوسطى قد فتحت الطريق لنقد هذا التراث وأصبحت هى الأساس الذى انطلقت منه حركات الاصلاح الدينى فى القرن التاسع عشر(١٣) .

— ومن الطبيعى أن تلقى هذه الدعوة اهتمام المعاصرين ، ومنهم الجبرتى .

الموحدون فى عجائب الآثار :

لم ترد فى كتابات الجبرتى أية اشارات عن الدعوة السلفية أو تحركات آل سعود قبل عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) ويرجع ذلك الى عدد من الأسباب فى رأيى :

١ — ان الجبرتى لم يهتم بكتابة التاريخ بشكل جدى قبل مجىء الحملة الفرنسية عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) أى بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بتسع سنوات ، وكان كل ما كتبه قبل ذلك التاريخ هو بعض ترجمات متفرقة لأعيان القرن الثانى عشر وحتى هذه الترجمات كان الجبرتى قد توقف عنها عقب وفاة المرادى عام ١٢٠٦ هـ (١٧٩١ م) ، وفترت همته حتى عاد لكتابة التاريخ بدافع جديد مع مجىء الحملة الفرنسية الى مصر(١٤) .

٢ — ان الحملة الفرنسية قد شغلت الجبرتى عما عداها من احداث خلال فترة وجود الفرنسيين فى مصر ، فهو يقول فى بداية الجزء الثالث من عجائب الآثار عن عام ١٢١٣ هـ (سنة وصول الحملة الفرنسية) « .. وهى أول سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع

وانقلاب الموضوع وتتابع الاهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب »(١٥)» .

٣ ــ ان دعوه الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم تلفت الأنظار فى المنطقة ــ خارج شبه الجزيرة ــ الا بعد أن شرع آل سعود فى تهديد الحجاز ، كما ان السلطات العثمانية لم تكن تنظر الى هجمات السعوديين على العراق قبل ذلك التاريخ الا على أنها مجرد مشكلات على الحدود يمكن أن يواجهها والى ببغداد(١٦) .

وكانت أول اشارة أوردها الجبرتى فى عجائب الآثار عن الموحدين هى ما ذكره فى حوادث شــــعبان عام ١٢١٧ هـ عندما قال : « وفيه حضرت جماعة من أشراف مكة وعلمائها هروبا من الوهابيين .. »(١٧) .

وقد أورد الجبرتى اخبار الموحدين ومبادىء الدعوة السلفية بعد هذا التاريخ فى أكثر من سبعين موضعا غطت الفترة من عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) حتى عام ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ م)(١٨) ، تناول الجبرتى خلالها ثلاث قضايا رئيسية هى : الصراع بين الاشراف وآل سعود ، ثم الحرب فى شــــبه جزيرة العرب بين الموحدين وقوات محمد على ، وأخيرا رؤية الجبرتى لمبادىء الدعوة السلفية بالاضافة الى عدد من القضايا الفرعية .

الصـــــراع بين الأشـــــراف وآل ســـــعود :

وأول ما يلفت النظر فيما كتبه الجبرتى حول هذا الموضوع هو تحريض اشراف مكة للعثمانيين ضد آل سعود واستعدائهم عليهم خصوصا بعد أن تدهور موقف الأشراف فى هذا الصراع على الرغم من أن الأشراف كانوا هم البادئين بهذه العداوة عندما

رفض الشريف مسعود بن سعيد الذى عاصر الأمير محمد بن سعود (١١٣٨ هـ — ١١٧٩ هـ/١٧٢٥ — ١٧٦٥ م) أن يسمح لأهل نجد بأداء فريضة الحج ، ثم شرع الأشراف فى مهاجمة أطراف نجد ابتداء من عام ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) . غير أنه ابتداء من عام ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) بات واضحا أن مركز الأشـــــراف قد أخذ يتدهور فى هذا الصراع بعد أن أخذت بعض قبائل الحجاز تنفض عنهم وتنضم للدعوة السلفية ، فراح الأشراف يستنجدون بالدولة العثمانية ويحرضونها ضد آل سعود(١٩) . ومن ثم تحركت وفود الاشراف الى القاهرة فى طريقها الى القسطنطينية لاســـتعداء الدولة العثمانية وطلب مســـاعدتها ، فالجبرتى يذكر فى حوادث شهر شعبان من عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) « وفيه حضرت جماعة من أشراف مكة وعلمائها هروبا من الوهابيين وقصدهم السفر الى اسلامبول يخبرون الدولة بقيام الوهابيين ويستنجدون بهم لينقذوهم منهم ويبادروا لنصرهم عليهم فذهبوا الى بيت الباشا والدفتردار وأكابر البلد وصاروا يحكون ويشـــــكون وتنقل الناس أخبارهم وحكايتهم »(٢٠) .

ثم يذكر الجبرتى فى أحداث شهر شوال من نفس العام نبأ وصول مجموعات أخرى من الأشراف لنفس الغرض وهو استعداء الدولة العثمانية ضد آل سعود فيقول : « وفى غايته حضر أولاد الشريف سرور شريف مكة هربا من الوهابيين يستنجدون بالدولة فنزلوا ببيت المحروقى بعد ما قابلوا محمد باشا والى مصر وشريف باشا والى جدة »(٢١) .

ويبدو ان الدولة العثمانية بدأت تستجيب خلال هذه الفترة المبكرة لنداءات الأشراف ، فالجبرتى يقول فى أحداث شهر ذى القعدة عام ١٢١٧ هـ « وفى خامس عشرينه حضر أحمد باشا إلى

دمياط وكانوا أرسلوا له طوخا ثالثا وأنه يحضر ويتوجه لمحافظة مكة وكذلك قلدوا آخر باشوية المدينة يسمى أحمد باشا وضموا لها عسكرا يسافرون صحبتهم للمحافظة من الوهابيين وأخذوا فى التشهيل »(٢٢) .

وعندما استولى آل سعود فى هجوم صاعق على الطائف عام ١٢١٧ هـ على أثر الانشقاق الذى حدث فى جبهة الاشراف بانضمام عثمان بن عبد الرحمن المضايفى الى آل سعود كتب الجبرتى فى أحداث شهر ذى الحجة يقول : « وفى يوم الجمعة خامس عشره حضرت مكاتبات من الديار الحجازية يخبرون فيها عن الوهابيين أنهم حضروا الى جهة الطائف فخرج اليهم شريف مكة الشريف غالب فحاربهم فهزموه فرجع الى الطائف فأحرق داره التى بها وخرج هاربا الى مكة فحضر الوهابيون الى البلدة وكبيرهم المضايقى نسيب الشريف وكان قد حصل بينه وبين الشريف وحشة فذهب مع الوهابيين وطلب من سعود الوهابى أن يؤمره على العسكر الموجهة لمحاربة الشريف ففعل فحاربوا الطائف وحاربهم أهلها ثلاثة أيام حتى غلبوا فأخذ البلدة الوهابيون واستولوا عليها عنوة وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال»(٢٣) .

ثم يسجل الجبرتى أخبار استيلاء آل سعود على مكة عام ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) وانسحاب الشريف غالب منها وهدم القباب ومشاهد القبور فى حوادث شهر محرم فيقول « وفيه حضر هجان على يده مكاتيب مؤرخة فى عشرين شهر ذى الحجة مضمونها أن الوهابيين أحاطوا بالديار الحجازية وأن شريف مكة الشريف غالب تداخل مع شريف باشا (سنجق جدة) وأمير الحج المصرى والشامى وارشاهم حتى يتعوقوا معه أياما حتى ينقل ماله ومتاعه الى جدة وذلك بعد اختلاف كبير وحل وربط »(٢٤) .

ثم يعود الجبرتى فيؤكد خبراً أستيلاء آل سعود على مكة فى حوادث نفس الشهر فيقول : « وفى يوم الأحد حضر الشريف عبد الله ابن سرور وصحبته بعض أقاربه من شرفاء مكة وأتباعهم نحو ستين نفرا وأخبروا أنهم خرجوا من مكة مع الحجاج وان عبد العزيز ابن سعود الوهابى دخل مكة من غير حرب وولى الشريف عبد المعين أميرا على مكة والشيخ عقيل قاضيا وأنه هدم قبة زمزم والقباب التى حول الكعبة والأبنية التى أعلى من الكعبة وذلك بعد أن عقد مجلسا بالحرم وباحثهم على ما الناس عليه من البدع والمحرمات المخالفة للكتاب والسنة وأخبروا أن الشريف غالب وشريف باشا ذهبا الى جدة وتحصنا بها وأنهم فارقوا الحجاج فى الجديدة »(٢٥) .

ومالبث الجبرتى أن أورد خبر استرداد الشريف غالب مكة بعد عودة قوات آل سعود الرئيسية الى نجد ، وقد ذكر ذلك فى موضعين ، ففى أحداث شهر ربيع الثانى من نفس العام يقول : « فى يوم السبت رابعه وردت هجانة من ناحية الينبع وأخبروا أن الوهابيين جلوا عن جدة ومكة بسبب أنهم جاءهم أخبار بأن العجم زحفوا على بلادهم الدرعية وملكوا بعضها والأوراق بها خطاب من شريف باشا وشريف مكة لطاهر باشا »(٢٦) . ثم يقول فى حوادث شهر جمادى الثانية : « وفى هذا الشهر تحقق الخبر بجلاء الوهابى عن جدة ومكة ورجوعه الى بلاده وذلك بعد أن حاصر جدة وحاربها تسعة أيام وقطع عنها الماء ثم رحل عنها وعن مكة ورجع الشريف غالب الى مكة وصحبته شريف باشا »(٢٧) .

وتفيد الأخبار التى أوردها الجبرتى عن شهر شوال بأن الدولة العثمانية كانت بصدد ارسال قوات الى الحجاز لتقوية مركز شريف

باشا الوالى التركى هناك ، حيث يذكر أن الوالى الجديد حضر الى مصر وبصحبته قوة كبيرة وعندما سئل من قبل بعض المماليك عن سبب اصطحابه لهذه القوة قال : « انما هذه العساكر متوجهة الى الحجاز تقوية لشريف باشا على الخارجى »(٢٨) . ويمضى الجبرتى فى تصوير جهود الدولة العثمانية خلال تلك الفترة لدعم موقف الاشراف والوالى العثمانى فى مواجهة آل سعود ، فيقول . « وفى خامس عشرينه (شهر شوال) عملوا ديوانا وقرأوا فرمانا وصل من الدولة مع الططر خطابا لعلى باشا والأمراء بتشهيل أربعة آلاف عسكر وسفرهم الى الحجاز وارسال ثلاثين الف أردب غلال الى الحرمين »(٢٩) .

وعندما عادت قوات آل سعود الى محاصرة مكة وتضييق الخناق على الشريف غالب كتب الجبرتى فى حوادث شهر ربيع أول عام ١٢٩ هـ (١٨٠٤ م) يقول : « وفى ثالث عشره ورد الخبر بوصول مراكب داوات من القلزم الى السويس وفيها حجاج والمحمل واخبروا بمحاصرة الوهابيبن لمكة والمدينة وجدة » . ثم يصور الأوضاع فى المدينة خلال فترة الحصار بقوله : « ان أكثر اهل المدينة ماتوا جوعا لعزة الأقوات والأردب القمح بخمسين فرانسا أن وجد والأرز بمائة فرانسا وقس على ذلك »(٣٠) .

ثم اشار الجبرتى فى حوادث شهر ربيع الثانى الى سقوط ينبع فى أيدى قوات آل سعود ، كما اشار الجبرتى الى تحريك الدولة العثمانية لبعض قواتها فى الشام الى الحجاز(٣١) ، وطلب السلطات العثمانية من والى مصر ارسال ما يحتاج اليه باشا ينبع العثمانى من ذخيرة « لمحافظتها من الوهابيين » .. وكذلك اعطاء محمد باشا والى جدة « ما يحتاج اليه من الذخيرة لأجل حفظ الحرمين»(٣٢) .

وكنتيجة لوطأة الحصار وأدراك الشريف غالب انه لم يعد فى وسعه مقاومة قوات آل سعود طلب الشريف غالب الصلح وقبل أن يبقى فى امارته تابعا للدرعية منفذا لتعليمات الدعوة السلفية ، وتم الصلح بينه وبين آل سعود ، وعلى اثر ذلك دخلت قوات آل سعود مكة وفتحت الطرق المؤدية لها(٣٣) . وقد سجل الجبرتى هذه الحقائق فى حوادث شهر المحرم ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) بقوله : « وفى هذه الأيام أيضا وصلت الأخبار من الديار الحجازية بمسالمة الشريف غالب للوهابيين وذلك لشدة ما حصل لهم من المضايقة الشديدة وقطع الجالب عنهم من كل ناحية حتى وصل ثمن الأردب المصرى من الأرز خمسمائة ريال والأردب البر ثلثمائة وعشرة وقس على ذلك السمن والعسل وغير ذلك فلم يسع الشريف الا مسالمتهم والدخول فى طاعتهم وسلوك طريقتهم وأخذ العهد على دعاتهم وكبيرهم بداخل الكعبة وأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها وشرب الأراجيل بالتنباك فى السعى بين الصفا والمروة وبالملازمة على الصلوات فى الجماعة ودفع الزكاة وترك لبس الحرير والمقصبات وابطال المكوس والمظالم »(٣٤) .

ويوضح الجبرتى كيف ان سيطرة آل سعود قد عكست بعض الرخاء فى تلك المناطق فيقول : « فعند ذلك أمنت السبل وسلكت الطرق بين مكة والمدينة وبين مكة وجدة والطائف وانحلت الأسعار وكثر وجود المطعومات وما يجلبه عربان الشرق الى الحرمين من الغلال والأغنام والأسمان والأعسال حتى بيع الاردب من الحنطة بأربعة ريالات »(٣٥) .

ولم تنه معاهدة عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) الصراع بين الأشراف وآل سعود فقد واصل الأشراف تحريض الدولة العثمانية ضد آل سعود سرا خصوصا بعد أن لاحت بوادر تدخل محمد على

فى شبه الجزيرة ، وخلال تلك الفترة كان الشريف غالب يلعب سياسة مزدوجة تقوم على اظهار الولاء لآل سعود والعمل فى نفس الوقت على الاتصال بالدولة العثمانية ومحمد على فى مصر مبديا استعداده لمساعدتهم وهى الحقيقة التى أشـــار اليها الجبرتى فى حوادث شهر رمضان عام ١٢٢٩ هـ (١٨١١ م) « والشريف غالب أمير مكة يكاتب الباشا ويراسله ويظهر له النصح والصداقة وخلوص المودة والباشا أيضا يراسله ويكاتبه وأرسل له السيد ســلامة البخارى والسيد أحمد الملا الترجمان المحروقى بمراسلات وجوابات مرارا عديدة فكانا هما السفيرين بينهما وأيضا الشريف فى كل كتابة مع كل مرسول يعاهد الباشا ويعاقده ويواعده بنصر عساكره متى وصـــلت وينافق الطـــرفين الذى هو العثمانى والوهابى ويداهنهما . أما الوهابى فلخوفه منه وعدم قدرته عليه فيظهر له الموافقة والامتثال وأنه معه على العهود التى عاهده عليها من ترك الظلم واجتناب البدع ونحو ذلك ويميل باطنه للعثمانيين لكونه على طريقتهم ومذهبهم وتعاقد مع الباشا انه متى وصلت عساكره قام بنصرتهم وساعدهم بكليته وجميع همته وأرســــل الى المراكب الكائنة بمرساة الينبع بأن ينقلوا ما فيها من مال التجار وغيرهم ويودعوه قلعة الينبع تحت يد وزيره وترك معه نحو الخمسمائة من عسكره وأخذ المراكب فأوسقها من بضائعه وبهاره وبنه وأرسلها الى السويس لتباع بمصر ثم توسق بمهمات العسكر البحرية»(٣٦).

وخلال عرض الجبرتى للصراع بين آل سعود والأشراف فى تلك الفترة تعرض الجبرتى لقضية فساد حكم الأشراف فى مكة فى أكثر من موضع ، فهو بقول فى ترجمته لحيـــــاة محمد أفندى الموظف بالرزنامة (ت ١٢١٨ هـ) « ولما اختلفت الأحوال وترادفت الفتن ضاق صدره من ذلك واستوحش من مصر وأحوالها فقصد الهجرة بأهله وعياله الى الحرمين وعزم على الاقامة هناك فلما

وصل هناك راى فيها الاختلاف والخلل كذلك بسبب ظلم الشريف غالب واتباعه وغارة الوهابيين على الحرمين وفتن العربان فلم يستحسن الاقامة هناك »(٣٧) . ويستطرد الجبرتى فى وصف مساوىء حكم الأشراف خلال تعليقه على الصلح الذى وقعه الشريف غالب مع آل سعود فيقول الجبرتى انه تم ابطال المكوس والمظالم وان الأشراف كانوا قد خرجوا عن الحدود فى ذلك « حتى ان الميت يأخذون عليه خمسة فرانسة وعشرة بحسب حاله وإن لم يدفع أهله القدر الذى يتقرر عليه فلا يقدرون على رفعه ودفنه ولا يقترب اليه الغاسل ليغسله حتى يأتيه الاذن وغير ذلك من البدع والمكوس والمظالم التى أحدثوها على المبيعات والمشتريات على البائع والمشترى ومصادرات الناس فى أموالهم ودورهم فيكون الشخص من سائر الناس جالسا بداره فما يشعر على حين غفلة منه الا والأعوان يأمرونه باخلاء الدار وخروجه منها ويقولون ان سيد الجميع محتاج اليها فاما أن يخرج منها وتصير من أملاك الشريف واما أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقل أو اكثر فعاهده على ترك ذلك كله »(٣٨) .

ويرى الجبرتى انه على الرغم من الصلح الذى تم بين آل سعود والشريف غالب بعد مناظرة تمت مع علماء الدعوة السلفية « واقامة الحجة بالأدلة التى لا تقبل التأويل من الكتاب والسنة » فان الشريف غالب استمر يأخذ العشور من التجار « واذا نوقش فى ذلك يقول هؤلاء مشركون وأنا آخذ من المشركين لا من الموحدين »(٣٩) .

الحرب فى شبه الجزيرة بين محمد على وآل سعود :

فى أعقاب استيلاء آل سعود على المدينة المنورة فى عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ودخول الشريف غالب فى طاعتهم اتخذ الأمير

سعود (١٢١٨ — ١٢٢٩ هـ/١٨٠٣ — ١٨١٤ م) — خلال أدائه فريضة الحج عام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) — عدة اجراءات لتأكيد سيادة آل سعود على الحجاز وازالة كل مظهر لسيادة العثمانيين على الأماكن المقدسة ، فطرد الموظفين الأتراك وبقايا الحـــامية العثمانية والقاضيين التركيين من مكة والمدينة وأصدر أمرا بمنع قوافل الحج المصحوبة بالمحمل والآتية من مصر والشام ، وبذلك أزيلت كل مظاهرالسيادة العثمانية على الحرمين الشريفين(٤٠) . وقد أشار الجبرتى الى هذه الوقائع فى حوادث شهر ربيع الثانى عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) بقوله : « وفى يوم الأحد سابعه وصلت القافلة والحجاج من ناحية القلزم على مرسى السويس وحضر فيها أغوات الحرم والقاضى الذى توجه لقضاء المدينة وهو المعروف بمسعد بيك وكذلك خدام الحرم المكى وقد طردهم الوهابى جميعا فاما القاضى المنفصل فنزل فى مركب ولم يظهر خبره وقاضى مكة توجه بصحبة الشاميين واخبر الواصـــلون أنهم منعوا من زيارة المدينة وان الوهابى أخذ كل ما كان فى الحجرة النبوية من الذخائر والجواهر وحضر أيضا الذى كان أميرا على ركب الحجاج وصحبته مكاتبة من سعود الوهابى ومكتوب من شريف مكة وأخبروا أنه أمر بحرق المحمل » .

وقد أشــــار الجبرتى الى أن الأخبار التى كانت تردد عن الموحدين خلال تلك الفترة كانت تخضع لاهواء أصـــحابها فيقول مستطردا : « واضطربت أخبار الاخباريين عن الوهابى بحسب الأغراض ومكاتبة الوهابى بمعنى الكلام السابق فى نحو الكراسة وذكر فيها ما ينســـبه الناس اليه من الأقوال المخالفة لقواعد الشرع ويتبرأ عنها »(٤١) .

وكان طبيعيا أن تثير سيطرة آل سعود على الحرمين الدولة العثمانية لأن خروج الأماكن المقدسة من سيادتها كان سوف يضعف

من مركزها فى العالم الاسلامى ، ومن ناحية اخرى فان الأشرافة واملوا الاتصال بالدولة العثمانية وراحوا يضخمون من تصرفات آل سعود فى مواجهة الدولة العثمانية(٤٢) . كما أن العناصر المستفيدة من الأوضاع التى كانت سائدة فى ظل حكم الاشراف والدولة العثمانية راحت هى الأخرى تضغط فى اتجاه تحريض العثمانيين على استرداد السيادة العثمانية على الحجاز ، وقد اشار الجبرتى الى الحقيقة الأخيرة فى حوادث شهر ذى الحجة عام ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨ م) بقوله : « لما امتنعت قوافل الحج المصرى والشامى وانقطع عن أهل المدينة ومكة ما كان يصل اليهم من الصدقات والعلائف والصرر التى كانوا يتعيشون منها خرجوا من أوطانهم بأولادهم ونسائهم ولم يمكث الا الذى ليس له ايراد من ذلك وأتوا الى مصر والشام ومنهم من ذهب الى اسلامبول يتشكون من الوهابى ويستغيثون بالدولة فى خلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التى كانوا عليها من اجراء الأرزاق واتصال الصلات والنيابات والخدم فى الوظائف التى بأسماء رجال الدولة كالفراشة والكناسة ونحو ذلك ويذكرون ان الوهابى استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها وأخذها فيرون ان أخذه لذلك من الكبائر العظام »(٤٣) .

وكان طبيعيا أن تتحرك الدولة العثمانية جديا للقضاء على نفوذ آل سعود للحفاظ على هيبتها ومصالحها خصوصا بعد استمرار آل سعود فى تهديد العراق والشام ، وشرعت الدولة العثمانية فى البداية بالاستعانة بولاة الشام والعراق ، فيذكر الجبرتى فى حوادث شهر صفر من عام ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩ م) أنه ورد فى ذلك الشهر « أمر بالسفر والخروج الى فتح الحرمين وطرد الوهابية عنهما وان يوسف باشا الصدر السابق المعروف بالمعدن تعين بالسفر للحرمين على طريق الشام وكذلك سليمان باشا

والى بغداد متعين أيضا بالسفر من ناحيته على الدرعية واحضر للباشا تقريرا بالولاية مجددا »(٤٤) .

وأول اشارة لاستعدادات محمد على لحرب شبه الجزيرة أوردها الجبرتى فى حوادث شهر جمادى الثانية عام ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) بتقليد ديوان أفندى « نظر مهمات الحرمين والتأهب لسفر الحجاز لمحاربة الوهابية » ، ثم يذكر فى حوادث شهر رجب نبأ وصول مندوب من طرف الدولة العثمانية معه أوامر « وخلعة وسيف وخنجر لمحمد على باشا وصحبته أيضا مهمات وآلات ومراكب ولوازم حروب لسفر البلاد الحجازية ومحاربة الوهابية »(٤٥) .

وعندما شرع محمد على فى ارسال قواته الى شبه جزيرة العرب بقيادة ابنه طوسون أشار الجبرتى الى ذلك فى حوادث شهر صفر عام ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) بقوله : « وفيه قلد الباشا ابنه طوسون باشا صارى عسكر الركب الموجه الى الحجاز وأخرجوا جيشهم الى ناحية قبة العزب ونصبوا عرضيا وخياما وأظهر الباشا الاجتهاد الزائد والعجلة وعدم التوانى ونوه بتسفير عساكر لناحية الشام لتمليك يوسف باشا لمحله وصارى عسكرهم شاهين بك الألفى ونحو ذلك من الايهامات وطلب من المنجمين أن يختاروا وقتا صالحا لالباس ابنه خلعة السفر فاختاروا له الساعة الرابعة من يوم الجمعة »(٤٦) .

وعندما تمكنت حملة طوسون من الاستيلاء على ينبع أشار الجبرتى الى ذلك فى حوادث شهر شعبان عام ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) وأضاف أن هذه القوات نهبت ما كان موجودا فى المدينة من أموال وودائع كما صور جانبا من المعركة التى نشبت بين قوات طوسون والقوات التى تصدت لها من الموحدين والفظائع التى ارتكبتها

قوات طوسون بعد الاستيلاء على المدينة بقوله « ونهبوا كل ما كان بالينبع من الودائع والأموال والأقمشة والبن وسبوا النساء والبنات الكائنات بالبندر وأخذوهن أسرى ويبيعونهن على بعضهم البعض »(٤٧) .

ويستطرد الجبرتى فيصور جانبا من القتال الذى نشب بين قوات آل سعود بقيادة جابر بن جبارة وقوات طوسون وكيف انتصرت قوات طوسون فى البداية ثم كيف واجهت هزيمة ساحقة بعد ذلك فى هجوم مضاد قاده عبد الله بن سعود ، ويصور الجبرتى ابعاد هذه الهزيمة والرعب الذى سيطر على قوات طوسون خلال المعركة وذلك فى حوادث شهر ذى الحجة ، ويقول الجبرتى انه على الرغم من أن حجم الهزيمة كان فادحا فان محمد على لم يتزلزل « ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا واستمر على همته فى تجهيز عساكر أخرى »(٤٨) .

ويوضح الجبرتى كيف ان قوات آل سعود لم تطارد فلول قوات طوسون المنهزمة عقب معركة الصفراء مما مكن طوسون بتدبير شريف مكة من احتلال وادى الصفراء فى المرحلة التالية ، فيقول الجبرتى فى حوادث شهر رمضان ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) : « فى رابع عشرينه وردت هجانة مبشرون باستيلاء الأتراك على عقبة الصفراء والجديدة من غير حرب بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب وبتدمير شريف مكة »(٤٩) . كما أشار الجبرتى الى استيلاء قوات طوسون على المدينة المنورة فى حوادث شهر ذى الحجة عام ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) وكذلك الاستيلاء على جدة ومكة فى أوائل عام ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) مركزا على الأساليب التى اتبعها طوسون باشا والشريف غالب فى استمالة القبائل فيقول « ولما وصل بونابرته (أحد قادة القوات التى أرسلت الى طوسون) الى ينبع البر أخذوا فى تأليب العربان واستمالتهم وذهب اليهم ابن شديد

الحويطى ومن معه وتقابلوا مع شيخ حرب ولم يزالوا به حتى وافقهم وحضروا به الى بونابرته فأكرمه وخلع عليه الخلع وكذلك على من حضر من اكابر العربان فألبسهم الكساوى والفراوى السمور والشالات الكشمير ملء أربع سحاحير وصب عليهم الأموال وأعطى لشيخ حرب مائة ألف فرانسة عين وحضر باقى المشايخ فخلع عليهم وفرق فيهم فخص شيخ حرب بمفرده ثمانية عشر ألف فرانسة ثم رتب لهم علائق تصرف لهم فى كل شهر لكل شخص خمسة فرانسة وغرارة بقسماط وغرارة عدس فعند ذلك ملكوهم الأرض .. كل ذلك بمغامرة الشريف غالب أمير مكة وتدبيره واشاراته فلما تم ذلك أظهر الشريف غالب أمره وملكهم مكة والمدينة »(٥٠) .

كما أورد الجبرتى نبأ الاستيلاء على الطائف والظروف التى تم فيها أسر المضايقى وأورد تفاصيل انفصاله عن الشريف غالب وبلائه فى الحرب تحت راية آل سعود وذلك فى حوادث شهر شوال عام ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) وفى نهاية ذلك علق الجبرتى على موقف الشريف غالب المتعاون مع قوات محمد على بقوله : « ليأخذ بذلك وجاهة عند الاتراك الذى هو على ملتهم ويتحقق لديهم نصحه لهم ومسالمته اياهم وسيلقى قريبا منهم جزاء ما فعله وبال أمره »(٥١) .

وفى المرحلة الثانية من الحرب فى شبه الجزيرة التى قادها محمد على اشار الجبرتى الى سفر محمد على الى الحجاز فى ١٤ شوال ١٢٢٨هـ (أغسطس ١٨١٣م) كما أشار الجبرتى فى حوادث شهر ذى القعدة عام ١٢٢٨هـ الى الوفد الذى أرسله الأمير سعود الى محمد على لفك أسر المضايقى مقابل مائة ألف فرانسة والنظر فى الصلح بينه وبين محمد على ، قال الجبرتى انه اثناء وجود هذا الوفد اجرت قوات محمد على تدريبات (مناورة بالذخيرة

حتى يؤثر على نفسية الوفد فينقل ذلك للأمير سعود ولكن هذه المحاولة لم تسفر عن نتيجة لأن المضايقى كان قد أرسل من قبل محمد على الى الدولة العثمانية(٥٢) . وأوضح الجبرتى أن مركز طوسون كان قد ساء قبيل وصول محمد على بعد أن تلقت قواته هزيمة كبيرة فى معركة تربة واستمر ذلك الوضع عقب وصول محمد على الى الحجاز مما جعله يطلب المدد من القاهرة ، وقد أشــار الجبرتى الى ذلك فى حوادث ربيع الثانى عام ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م) بقوله : « وفى ليلة الاثنين سادسه حضـــر مرسول من ناحية الحجاز مرسلا من عند الباشا باستعجال حسن باشا للحضور الى الحجاز وكان قبل ذلك بأيام أرسل يطلب سبعة آلاف عسكرى وسبعة آلاف كيس فشرع كتخدا بيك استكتاب أشخاص من أخلاط العالم »(٥٣) .

وكجزء من خطط محمد على الرامية للســـيطرة على شبه الجزيرة العربية قام بالقبض على الشريف غالب وأولاده وصادر املاكه وأرسله الى القاهرة ومنها الى استانبول حيث نفى الى سالونيك بعد أن ارتاب محمد على فى مسلكه(٥٤) .

وعندما شرع محمد على فى تنفيذ خططه العسكرية أرسل ابنه طوسون على رأس جيش من المشاة والفرسان لملاقاة جيش الأمير سعود الذى تحصن فى بشة ورنية لكن هذه القوات فشلت فى الاستيلاء على تربة وانهزمت أمام قوات آل سعود وانسحبت الى الطائف فتعقبتها القوات السعودية وفرضت الحصار عليها لبعض الوقت وقد وصف الجبرتى معركة تربة فى حوادث شـــهر جمادى الأولى ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م) وأوضح ان سوء موقف محمد على يرجع الى مسلكه مع الشريف غالب وهو الموقف الذى دفع الأشراف بقيادة الشريف راجح الى الانضمام لمعســكر الموحدين

ومعهم بعض القبائل خوفا من غدر محمد على ، فالجبرتى يقول :
« وفى رابعه وصلت هجانة من ناحية الحجاز بطلب حسين بيك والى باشا واخشاب واحتياجات وجمال والذى أخبر به المخبرون عن الباشا وعساكره أن طوســــــون باشا وعابدين بيك ركبوا بعساكرهم على ناحية تربة .. فوقعت بينهم حروب ثمانية أيام ثم رجعوا منهزمين ولم يظفروا بطائل ولأن العربان نفرت طباعهم من الباشا لما حصل منه فى حق الشريف من القبض عليه وهاجر كثير من الأشراف وانضموا الى الاخصام وتفرقوا فى النواحى ومنهم شخص يسمى الشريف راجح فأتى من خلف العسكر وقت قيام الحرب وحاربهم ونهب الذخيرة والأحمال وقطع عنهم المدد »(٥٥) .

وانتقل الجبرتى من تصوير أبعاد هزيمة تربة وأسبابها الى وصف أوضاع الحرمين فى ظل الحرب وذكر أن ســــبب ارتفاع الأسعار الذى حدث خلال تلك الفترة يرجع الى سياسة محمد على الاحتكارية التى وصلت الى حد تفتيش الحجاج الذاهبين للحج ، فالجبرتى يقول : « وأخبروا ان الجمال قل وجودها عند الباشا ويشتريها من العربان المسالمين بأغلى ثمن وأخبروا أيضا انه واقع بالحرمين غلاء شديد لقلة الجالب واحتكار الباشا للغلال الواصلة اليه من مصر فيبيعه حتى على عسكره بأغلى ثمن مع التحجير على المســــافرين والحجاج فى استصحابهم شيئا من الحب والدقيق فيفتشون متاعهم فى السويس ويأخذون ما يجدونه معهم مما يتزودون به فى سفرهم من القمح والدقيق وما يكون معهم من الفرانسة لنفقتهم واعطوهم بدلها من القروش »(٥٦) .

كما أورد الجبرتى فى حوادث نفس الشهر (جمادى الأولى ١٢٢٩ هـ) نبأ وفاة الأمير سعود وتولى الأمير عبد الله بن سعود قيادة الموحدين(٥٧) .

وفى حوادث شهر ربيع الثانى ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م) أورد الجبرتى خبرا استيلاء قوات محمد على على رانية وبيشة وتأهب قواته لاحتلال القنفذة وفى أخبار شهر جمادى الأولى أورد الجبرتى أخبار استيلاء محمد على على القنفذة وأسر طامى بن شعيب(٥٨) وكانت القنفذة قد دارت حولها معارك شرسة بقيادة طامى بن شعيب وقوات محمد على أورد الجبرتى تفاصيلها فى حوادث شهر جمادى الأولى ١٢٢٩ هـ(٥٩) .

ومالبث الجبرتى أن أورد نبأ وصول محمد على المفاجىء الى القاهرة ليلة الجمعة ١٥ رجب ١٢٣٠ هـ (٢٣ يونيو ١٨١٥ م)(٦٠) ، وعندما حاول عبد الله بن سعود ان يبذل جهده للوصـــــول الى اتفاق مع محمد على حقنا للدماء أورد الجبرتى نبأ الوفد السعودى الذى وصل الى القاهرة فى شوال ١٢٣٠ هـ (سبتمبر ١٨١٥ م) للتفاوض حول شروط الصلح وانهاء القتال فى شبه الجزيرة وهو الوفد الذى ضم عبد الله بن محمد والقاضى عبد العزيز بن حمد بن ابراهيم ويقول الجبرتى أن محمد على لم يحسن استقبال الوفد ولم يعجبه الصلح المبدئى الذى وقع بين عبد الله بن سعود وطوسون وأورد الجبرتى نص الحوار الذى دار بين الوفد ومحمد على بما يفيد أن عبد الله بن سعود كان راغبا حقا فى الصلح بطريقة يفهم منها اختلاف شخصية عبد الله بن سعود عن شخصية سلفه الأمير ســـــعود .

ويذكر الجبرتى أنه التقى بذلك الوفد مرتين ، ويقول « فوجدت منهما أنسا وطلاقة لسان واطلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر ولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق وحســـن الأدب فى الخطاب والتفقه فى الدين واســـتحضار الفروع الفقهية واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف واسم احدهما عبد الله والآخر عبد العزيز وهو الأكبر حسا ومعنى »(٦١) .

وواصل الجبرتى ذكر جوانب من تطور الحرب فى شبه الجزيرة بعد وصول ابراهيم باشا اليها فى حوادث شهر رجب ١٢٣٢ هـ (١٨١٦ م) . وفى حوادث شهر ربيع الثانى ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ م) أشار الجبرتى الى استيلاء ابراهيم باشا على الشقراء وانسحاب عبد الله بن سعود منها الى الدرعية ليلا(٦٢) .

غير ان الجبرتى فى هذه الفترة لا يقدم تفاصيل لسير القتال لقلة الأخبار الواردة أو ربما لأنه لم يكن راضيا عن تطور القتال فى هذه المرحلة من الحرب الأمر الذى جعله يغفل تفاصيل المعارك، فمثلا هو لا يذكر فى حوادث شهر جمادى الثانية ١٢٣٣ هـ أية تفاصيل عن سير القتال حول الدرعية سوى قوله « ضربت مدافع لوصول بشارة من ابراهيم باشا بأنه ملك جانبا من الدرعية وان الوهابية محصورون وهو ومن معه من العربان محيطون بهم »(٦٣) .

ويقول فى أحداث شهر رمضان « وصل نجاب واخبر بأن ابراهيم باشا ركب الى جهة من نواحى الدرعية لأمر يبتغيه فاغتنم الوهابية غيابه وكبسوا على العرضى على حين غفلة وقتلوا من العساكر عدة وافرة وأحرقوا الجبخانة »(٦٤) .

وفى أخبار شهر ذى الحجة يذكر الجبرتى خبر سقوط الدرعية فى يد قوات ابراهيم فيقول « فى سابعه وردت بشائر من شرقى الحجاز بمراسلة من عثمان أغا الوردانى بأن ابراهيم باشا استولى على الدرعية والوهابية فانسر الباشا لهذا الخبر سرورا عظيما »(٦٥) . ثم عاد فأكد الخبر مرة أخرى فى حوادث شهر محرم ١٢٣٤ هـ موضحا حجم الاحتفالات التى أقامها محمد على بهذه المناسبة فى القاهرة ، ويورد الجبرتى فى حوادث نفس الشهر خبر وصول عبد الله بن سعود الى القاهرة ومقابلته لمحمد على كما أورد الحديث الذى دار بينهما ، ويقول الجبرتى أن

محمد علي عندما دخل عليه عبد الله بن سعود « قام له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه وقال له ما هذه المطاولة ؟ فقال الحرب سجال قال وكيف رأيت ابراهيم باشا ؟ قال ما قصر وبذل همته ونحن كذلك حتى كان ما كان قدره المولى فقال أنا ان شاء الله تعالى أترجى فيك عند مولانا السلطان فقال المقدر يكون ثم ألبسه خلعة وانصرف » . ثم أورد الجبرتي بعد ذلك خبر سفر عبد الله ابن سعود الى الآستانة(٦٦) .

وفى اخبار شهر رجب ١٢٣٤ هـ سجل الجبرتي نبأ وصول مجموعة أخرى من الموحدين وآل سعود ويقول ان عددهم بلغ نحو أربعمائة شخص من بينهم ابن عبد الله بن سعود « واسكنوا بالقشلة التى بالأزبكية وابن عبد الله بن سعود بدار عند جامع مسكة هو وخواصه من غير حرج عليهم »(٦٧) .

ومما لاشك فيه أن الجبرتي ساءه أن يرى بعض الأسرى من المسلمين يباعون فى الأسواق ، فهو يقول فى حوادث صفر ١٢٣٥ هـ « وفيه وصل جماعة من عسكر المغاربة والعرب الذين كانوا ببلاد الحجاز وصحبتهم أسرى من الوهابية نساء وبنات وغلمان نزلوا عند الهمايل وطفقوا يبيعونهم على من يشتريهم » . ويعلق على ذلك بقوله « مع أنهم مسلمون وأحرار »(٦٨) .

وكان آخر ما أورده الجبرتي حول الموضوع هو ضرب آخر محاولة من قبل آل سعود للتجمع فى الدرعية بقيادة الأمير مشارى ابن سعود وذلك فى حوادث شهر شوال ١٢٣٦ هـ (١٨٢٢ م)(٦٩).

وخلال عرض الجبرتي لبعض وقائع الحرب فى شبه الجزيرة بين الموحدين وقوات محمد علي تعرض الجبرتي بشكل سريع لبعض القضايا المتصلة بهذه الحرب منها نوعية القوات التى شاركت

فى حرب شبه الجزيرة ، والجبرتى يصف هذه القوات بما يفيد أنها كانت بعيدة كل البعد عن الدين والأخلاق رغم أنهم يطلقون على أنفسهم لقب المجاهدين ، فهو يقول فى حوادث شهر رمضان عام ١٢٢٩ هـ « برز دبوس اوغلى خارج باب الفتوح ليسافر بعسكره الى الحجاز وكذلك حسن اغا سرششمة ونصبوا خيامهم واستمروا يخرجون من المدينة ويدخلون غدوا وعشيا وهم يأكلون ويشربون جهارا نهارا فى رمضان ويقولون نحن مسافرون ومجاهدون ويمرون بالأسواق ويجلسون على المصاطب وبأيديهم الاقصاب والشبكات التى يشربون فيها الدخان من غير احتشام ولا حياء .. واشنع من ذلك انه اجتمع بناحية عرضيهم وخيامهم الجم الكثير من النساء الخواطى والبغايا ونصبوا لهن خياما واخصاصا وأنضم اليهن بياع البوظة والعرقى والحشاشون والغوازى والرقاصون وأمثال ذلك انحشر معهم الكثير من الفساق وأهل الأهواء والعياق من أولاد البلد فكانوا جمعا عظيما يأكلون الحشيش ويشربون المسكرات ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهارا فى رمضان ولياليه مختلطين مع العساكر كأنما سقط عن الجميع التكاليف وخلصوا من الحساب .. »(٧٠) .

ويؤكد الجبرتى فكرته هذه مرة أخرى وهو يتحدث عن الامدادات التى أرسلت الى شبه الجزيرة العربية خلال شهرى شعبان ورمضان عام ١٣٣ هـ (١٨١٨ م) « وارتحل جملة من العساكر فى دفعات ثلاث برا وبحرا يتلو بعضهم بعضا فى شعبان ورمضان وبرز عرضى خليل باشا الى خارج باب النصر وترددوا فى الخروج والدخول واستباحوا الفطر فى رمضان بحجة السفر فيجلس الكثير منهم . فى الأسواق يأكلون ويشربون ويمرون بالشوارع وبأيديهم اقصاب الدخان من غير احتشام ولا احترام لشهر الصوم وفى اعتقادهم الخروج بقصد الجهاد »(٧١) .

ولا يسمى الجبرتى القوات التى حاربت ضد الموحدين فى شبه الجزيرة العربية قوات مصرية فهو يسميهم الأتراك ، فهو يقول فى حوادث شهر رمضان ١٢٢٧ هـ فى ذكر معركة الصفراء « وردت هجانة مبشرون باستيلاء الأتراك على عقبة الصفراء والجديدة من غير حرب » ، ويقول فى حوادث شـــــهر ربيع الثانى ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م) وهو يصف تطور المعارك بين قوات ابراهيم باشا والأمير عبد الله بن سعود « وبين عســـاكر الأتراك والدرعيين مسافة يومين »(٧٢) .

ثم يتناول الجبرتى اثر حرب شـــــبه الجزيرة على المجتمع المصرى ، والجبرتى يرى ان محمد على قد استغل هذه الحرب لفرض المزيد من الضرائب والاتاوات كما جند لهذه الحرب كل العناصر القادرة على الاسهام فى مجهوده الحربى من الحرفيين والصناع لدرجة أثرت على السوق المصرية ، فهو مثلا يذكر فى حوادث شهر ذى الحجة عام ١٢٢٦ هـ (يناير ١٨١١ م) ان محمد على « فرض على البلاد جمالا ذكر انها من أصل الغرائم والفرض فى المستقبل وكذلك فرض غلالا » ويقول الجبرتى أن ما فرض على اقليم الشرقية وحده بلغ اثنى عشر اردبا وذلك فى أعقاب الهزيمة التى لحقت بقواته فى معركة الصفراء »(٧٣) .

وفى أعقاب وصـــول محمد على الى الحجاز فى أغسطس ١٨١٣ وكنتيجة لسوء موقف قواته طلب سبعة آلاف كيسة من النقود وعددا من الجند والعناصر التى يمكن ان تقوم بالخدمات الضرورية للجيش ويقول الجبرتى « ان كتخدا بيك جمع اخلاطا من العالم .. وفيهم أشخاص من الفعلة الذين يستعملون فى شيل التراب والطين من العمائر وبرابرة وارسل الكتخدا الى الفيوم وغيرها يطلب رجالا من أمثـــال ذلك وجمعوا الـــكثير من أرباب

الصنائع مثل الخبازين والفرانين والنجارين والحدادين والبياطرة وغيرهم من أرباب الصنائع ويسحبونهم قهرا فأغلق الفرانون مخابزهم وتعطل خبيز الناس أياما »(٧٤) .

وفى عام ١٢٣٣ هـ زاد محمد على الضرائب وذكر الجبرتى ان سبب ذلك هو الحرب فى شبه جزيرة العرب فهو يقول « ومنها ان الباشا زاد فى هذه السنة الخراج وجعل على كل فدان ستة قروش وسبعة وثمانية وذكر انها مساعدة على حرب الحجاز والخوارج »(٧٥)

وآخر القضايا التى تتعلق بهذا الموضوع والتى أثارها الجبرتى هى اسلوب محمد على فى تحقيق أهدافه خلال هذه الحرب وهو أسلوب يقوم على استخدام كل وسائل الخديعة والمكر ليس فقط مع أعدائه ومعارضيه بل مع العناصر التى تعاونت معه أيضا من أمثال الشريف غالب ، ويفهم مما أورده الجبرتى فى عدد من المواضع أولها مذبحة القلعة التى نفذها محمد على فى المماليك بينما كان يحتفل بتنصيب ابنه طوسون قائدا للقوات المتوجهة الى حرب الموحدين فى شبه الجزيرة ، وقد أورد الجبرتى تفاصيل هذه الواقعة فى حوادث شهر صفر ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) ويعلق على هذه المذبحة التى غدر فيها محمد على بالمماليك دون سابق انذار بقوله « فكانت هذه الكائنة من أشنع الحوادث التى لم يتفق مثلها »(٧٦) .

ويعرض الجبرتى مرة اخرى لأسلوب محمد على القائم على الخديعة فى التعامل مع أعدائه فيما أورده عن الطريقة التى تم بها اسر طامى بن شعيب فيقول الجبرتى فى حوادث شهر جمادى الأولى ١٢٣٠ هـ « .. ووردت مكاتبات بالقبض على طامى الذى

جرى منه ما جرى فى وقائع متنفذة السابقة وقتله العساكر فلم يزل راجح الذى اصطلح مع الباشا ينصب له الحبائل حتى صاده وذلك انه عمل لابن اخيه مبلغا من المال ان هو اوقعه فى شركه فعمل له وليمة ودعاه الى محله فأتاه آمنا فقبض عليه واغتاله طمعا فى المال واتوا به الى عرضى الباشا فوجهه الى بندر جدة فى الحال وأنزلوه السفينة وحضروا به الى السويس وعجلوا بحضوره»(٧٧).

ومرة ثالثة يوضح الجبرتى اسلوب محمد على القائم على الغدر فى الطريقة التى تم بها القبض على ابن الشريف حمود عندما شرعت قوات خليل باشا تتحرك فى ديسمبر ١٨١٨ لضم منطقة ابى عريش اليمنية(٧٨) . فالجبرتى يقول فى حوادث شهر شعبان ١٢٣٤ هـ (١٨١٩ م) « وصـــــل جماعة هجانة من جهة الحجاز وصحبتهم ابن حمود أمير يمن الحجاز وذلك انه لما مات أبوه تأمر عوضه واظهر الطاعة وعدم المخالفة للدولة فلما توجه خليل باشا الى اليمن اخلى له البلاد واعتزل فى حصن له ولم يخرج لدفعه ومحاربته ، كما فعل أبوه وترددت بينهما المراسلات والمخادعات حتى نزل من حصنه وحضر عند خليل باشا فقبض عليه وارسله مع الهجانة إلى مصر(٧٩) .

ويوضح الجبرتى ان هذا الاسلوب فى التعامل لم ينج منه حتى أولئك الذين تعاونوا مع محمد على أمثال الشريف غالب الذى ذكر الجبرتى تفاصيل القبض عليه وذهابه الى القاهرة ثم نفيه بعد ذلك بواسطة السلطان العثمانى فالجبرتى يقول فى حوادث شهر محرم ١٢٢٩ هـ « وفى يوم الاحد سابع عشره وصل السيد غالب

شريف مكة الى مصر القديمة وقد أتت به السفينة من القلزم إلى مرساة ثغر القصير فتلقاه ابراهيم باشا وحضر صحبته الى قنا وقوص ثم ركب النيل بمن معه من أولاده وعبيده والعسكر الواصلين صحبته وحضر الى مصر القديمة .. »(٨٠) .

ويستطرد الجبرتى فيقول « والذى بلغنا فى كيفية القبض عليه انه لما ذهب الباشا الى مكة واستمر هو وابنه طوسون باشا مع الشريف غالب على المصادقة والمسالمة والمصافاة وجدد معه العهود والايمان فى جوف الكعبة بألا يخون أحد صاحبه وكان الباشا يذهب اليه فى قلة وهو الآخر يأتى اليه والى ابنه كذلك واستمروا على ذلك خمسة عشر يوما من ذى القعدة . دعاه طوسون باشا اليه فأتى اليه كعادته فى قلة فوجد بالدار عساكر كثيرة ، فعندما استقر به المجلس وصل عابدين بك فى عدة وافرة وطلع الى المجلس فدنا منه واخذ الجنبية من حزامه وقال له انت مطلوب للدولة فقال سمعا وطاعة ولكن حتى اقضى اشغالى فى ظرف ثلاثة ايام واتوجه فقال لا سبيل الى ذلك والسفينة حاضرة فى انتظارك فحصل فى جماعة الشريف وعبيده رجة وصعدوا على أبراج سرايته وارادوا الحرب فأرسل اليهم الباشا يقول لهم ان وقع منكم حرب أحرقت البلدة وقتلت استاذكم وارسل لهم ايضا الشريف يكفهم عن ذلك وكان بها أولاده الثلاثة فحضر اليهم الشيخ احمد تركى وهو من خواص الشريف وخدمهم وقال لهم لم يكن هناك بأس وانما والدكم مطلوب فى مشاورة مع الدولة ويعود بالسلامة وحضرة الباشا يريد أن يقلد كبيركم نيابة عن ابيه الى حين رجوعه ولم يزل حتى انخدع كبيرهم لكلامه وقاموا معه فذهب بهم الى محل خلاف الذى به والدهم »(٨١) .

ويستطرد الجبرتى فيصور المعاملة التى لقيها الشريف غالب وأسرته من سلطات محمد على فيقول الجبرتى « وفيه (شيهر

محرم) ايضا وصل حريم الشريف غالب فعينوا له دارا يسكنها مع حريمه جهة سويقة العربى فسكنها ومعه اولاده وعليهم المحافظون واستولى الباشا على موجودات الشريف غالب من نقود وامتعة وودائع ومخبآت وشرك وتجارات وبن وبهار بمكة وجدة والهند واليمن شىء لا يعلم قدره الا الله ، اخرجوا حريمه وجواريه من سرايته بما عليهن من الثياب بعد مافتشوهن تفتيشا فاحشا وهتك حرمته . قل اللهم مالك الملك هذا الشريف غالب انتزع من مملكته وخرج من دولته وسيادته وأمواله وذخائره وانسل من ذلك كله كالشعرة من العجين حتى انه لما ركب وخرج مع العسكر وهم متوجهون به الى جدة أخذوا ما فى جيوبه فليعتبر من يعتبر وكل الذى وقع له وما سيقع له بعد من التغريب وغيره فيما جناه من الظلم ومخالفة الشريعة والطمع فى الدنيا وتحصيلها بأى طريق »(٨٢) .

وآخر القضايا فى هذا السياق هى **رؤية الجبرتى لمبادىء الدعوة السلفية :**

لم يذكر الجبرتى رأيه فى مبادىء الدعوة السلفية فى دراسة او فى مقدمة نظرية متكاملة وانما جاءت رؤية الجبرتى لمبادىء الدعوة السلفية خلال بعض التعليقات التى أوردها عن موقف الموحدين من البدع السائدة فى عصرهم ، ثم خلال تعليقه على الرسالة التى أوردها فى الجزء الثالث من عجائب الآثار وتحوى جانبا من مبادىء الدعوة السلفية(٨٣) وهى تركز على قضية محورية هى قضية التوحيد واخلاص العبادة لله وحده ، وتستدل على ذلك بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كما تركز على رفض البدع والمستحدثات التى أعظمها الاشراك بالله والتوجه الى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات التى لا يقدر عليها الا رب الأرض

والسـمـاوات وكذلك التقرب اليهم بالنذور وذبائح القـربان والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد وجلب الفوائد الى غير ذلك من انواع العبادة التى لا تصلح الا لله » .

وفى النهاية تقول الرسالة « .. وتدعو الناس الى اقامة الصلوات فى الجماعة على الوجة المشروع وايتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر كما قال تعالى (الذين ان مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) فهذا هو الذى نعتقده وندين به لله فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له ما لنا وعليه ما علينا ونعتقد أيضا أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم المتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة وانه لاتزال طائفة من أمته على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى امر الله وهم على ذلك .. »(٨٤) .

وعند هذا الحد تنتهى الرسالة ، ويقول الجبرتى تعليقا عليها « اقول ان كان كذلك فهذا ما ندين لله به نحن أيضا وهو خلاصة لباب التوحيد وما علينا من المارقين والمتعصبين وقد بسط الكلام فى ذلك ابن القيم فى كتابه اغاثة اللهفان وحافظ المقريزى فى تجريد التوحيد والامام البوسى فى شرح الكبرى وشرح الحكم لابن عباد وكتاب جمع الفضائل وقمع الرذائل وكتاب مصايد الشيطان وغير ذلك »(٨٥) ..

وكان الجبرتى قدم لهذه الرسالة بقوله « ثم رجعوا بالمحمل ودخلوا به المدينة وقت الظهر على خلاف العادة وحضر صحبة الحجاج كثير من أهل مكة هروبا من الوهابى ولغط الناس فى خبر الوهابى واختلفوا فيه فمنهم من يجعله خارجيا وكافرا وهم المكيون

ومن تابعهم وصدق اقوالهم ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه وارسل الى شيخ الركب المغربى كتابا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وصورتها »(٨٦) .

اما تعليقــــات الجبرتى على موقف الموحـــــدين من البدع والمستحدثات فقد جاءت حول قضيتين الأولى هى ما تردد حول منع الموحدين الناس من الحج الى بيت الله الحرام والجبرتى ينفى ذلك أكثر من مرة ، فهو يقول فى اخبار شهر جمادى الثانية ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) « وصلت قافلة من السويس وصحبتها المحمل فأدخلوه وشقوا به من المدينة وخلفه طبل وزمر وامامه أكابر العسكر وأولاد الباشا ومصطفى جاويش المتســـفر عليه ولقد أخبرنى مصـــطفى جاويش المذكور انه لما ذهب الى مكة وكان الوهابى حضر الى الحج واجتمع به فقال له الوهابى ما هذه العويدات التى تأتون بها وتعظمونها بينكم ؟ يشير بذلك القول الى المحمل فقال له جرت العادة من قديم الزمان بها يجعلونها علامة واشارة لاجتماع الحجاج فقال لا تفعلوا ذلك ولا تأتوا به بعد هذه المرة وان أتيتم به مرة اخرى فانى أكسره »(٨٧) .

ثم يقول الجبرتى فى حوادث شــــهر المحرم عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) ... « وفيه ورد الخبر بأن ركب الحاج الشامى رجع من منزلة هدية ولم يحج فى هذا العام وذلك انه لما وصل الى المنزلة المذكورة ارسل الوهابى الى عبد الله باشا أمير الحج يقول له لا تأت الا على الشروط التى شرطناها عليك فى العام الماضى وهو ان يأتى بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والاسلحة وكل ما كان مخالفا للشرع فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير حج » . ويقول الجبرتى تعليقا على ذلك « ولم يتركوا مناكيرهم »(٨٨) .

ثم يقول الجبرتى فى احداث شهر صفر « وفيه وصل حجاج المغاربة الى مصر من طريق البر وأخبروا أنهم حجوا وقضــــوا مناسكهم وان سعود الوهابى وصل الى مكة بجيش كثيف وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار وأنه هدم القباب وقبة آدم وقباب ينبع والمدينة وأبطل شرب التنباك والنارجيلة من الأسواق وبين الصفا والمروة وكذلك البدع »(٨٩) .

ومن الشـــروط التى أوردها الجبرتى للاتفاق الذى تم بين الشريف غالب وآل سعود والذى قبل بمقتضاه الدخول فى طاعة آل سعود (١٢٢١ هـ) ذكر الجبرتى جانبا من هذا الاتفاق فيقول « فعاهده (يقصد عاهد الشريف غالب الأمير سعود الكبير) على ترك ذلك واتباع ما أمر الله تعالى به فى كتابه العزيز من اخلاص التوحيد لله وحده واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والائمة المجتهدون إلى أواخر القرن الثالث وترك ما حدث فى الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقين الاحياء والأموات فى الشدائد والمهمات وما أحدثوه من بناء القباب على القبور والتصاوير والزخارف وتقبيل الاعتاب والخضــــوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور والذبح والقربان وعمل الأعياد والمواســــم لها واجتماع أصناف الخلائق النساء بالرجال وباقى الأشياء التى فيها شركة المخلوقين مع الخالق فى توحيد الالوهية التى بعثت الرسل الى مقاتلة من خالفها ليكون الدين كله لله فعاهده على منع ذلك كله وعلى هدم القباب المبنية على القبور والأضرحة لأنها من الأمور المحدثة التى لم تكن فى عهد النبوة »(٩٠) .

وكان آخر القضايا التى أثارها الجبرتى والتى توضح موقفه من الفكر السلفى تعليقه المســـــتفيض على موضوع استيلاء آل

سعود على الأموال الموجودة بالغرفة النبوية الشــــريفة فيذكر الجبرتى فى حوادث شهر ذى الحجة عام ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨ م) ان اهالى مكة والمدينة الذين تضـــرروا من انقطاع قوافل الحج المصرى والشامى لجأ بعضهم الى استانبول يســـتعدون الدولة العثمانية « ويذكرون ان الوهابى اســتولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها واخذها فيرون ان اخذه لذلك من الـــكبائر العظام » وينبرى الجبرتى للتعليق على ذلك موضحا رايه فى هذه البدعة فيقول « وهذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم حرصا على الدنيا وكراهة أن ياخذها من ياتى بعدهم أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج اليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء فلما تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة وهى فى الزيادة ارتصدت معنى لا حقيقة وارتسم فى الأذهان حرمة تناولها وانها صارت مالا للنبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لأحد اخذها ولا انفاقها والنبى عليه الصلاة والسلام منزه عن ذلك ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا فى حياته وقد أعطاه الله الشرف الأعلى وهو الدعوة الى الله تعالى والنبوة والكتاب واختار أن يكون نبيا عبدا لا أن يكون نبيا ملكا »(٩١) .

- ويستطرد الجبرتى فيقول « ومحبة الرسول بتصديقه واتباع شريعته وســـــنته لا بمخالفة أوامره وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين » ويقول الجبرتى ان وجود هذه الأموال « لا ينتفع بها أحد الا مايختلسه العبيد والخصيان الذين يقال لهم أغوات الحرم . والفقراء من أولاد الرسول وأهل العلم المحتاجون وأبناء الســـــبيل يموتون جوعا وهذه الذخائر محجور عليها وممنوعون منها »(٩٢) . وهو بذلك لا يستنكر استيلاء آل سعود على هذه الأموال .

... تلك هى رؤية الجبرتى لحركة الاصـــلاح السلفية بأحداثها ومبادئها كما جاءت نى عجائب الآثار ، وهى رؤية متعاطفة مع هذه الحركة ومبادئها ومتســـــقة مع موقف الجبرتى الناقد لانحرافات عصــــــره . وعلى الرغم من أن الجبرتى كان قليل التعليق على الأخبار التى يوردها لدرجة جعلت البعض يصـــــنفه فى عداد الاخباريين(٩٣) ، فانه خرج عن هذه القـــاعدة الى حد ما فى تعليقاته على موقف الموحدين المتصدى للبدع التى شاعت خلال تلك الفترة وكان تعليقه عليها يفيد اعجابه بمواقفهم وتعاطفه معهم، ومن ناحية أخرى أوضح الجبرتى فى مقدمة عجائب الآثار رأيه فى قضية مهمة فى الفكر الاسلامى وهى قضية التشريع ، والجبرتى يرى أن مصدر التشريع فى الاسلام هو الكتاب والسنة حيث يقول « فالواجب على الملك وعلى ولاة الأمور الا يقطع فى باب العدل الا بالكتاب والسنة لأنه لا يتصـــــرف فى ملك الله وعباد الله الا بشريعة نبيه »(٩٤) . الأمر الذى يجعلنا نقرر أن الجبرتى كان منحازا للفكر السلفى أكثر من انحيازه للفكر الحديث

هوامش الفصل الثالث

(١) عن أصل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونسبه انظر : أحمد عبد الغفور عطار : محمد بن عبد الوهاب (بيروت ١٣٩٢ هـ/١٩٧٣ م) ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ١٠ ، ١٥ .

(٣) د . محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٤) محمد بن عبد الوهاب : مجموعة التوحيد ، رسالة هدية طيبة (المكتبة السلفية بالقاهرة) ص ١٥٦ .

(٥) أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ص ١٢ ، ١٣ .

أيضا أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٦) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى ١١٥٨ — ١٢٣٣ هـ/١٧٤٥ — ١٨١٨ م (القاهرة ١٩٦٩) ص ٣٠ .

أيضا أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٧) محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٨) أحمد عبد الغفور عطار : المرجع السابق ، ص ص ٥٥ ، ٥٦ ، أيضا ابن بشر : المرجع السابق ، ص ص ٢٠ ، ٢١ .

(٩) أورد ابن بشر نص الحوار الذى دار بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب : المرع السابق ، ص ٢١ .

(١٠) أحمد عبد الغفور عطار : المرجع السابق ، ص ص ٧٠ ، ٨٧ .

(١١) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ص ١٣٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢٨٤ .

(١٢) د . السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠ — ١٩٠٨) القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ص ١٠٥ — ١٠٧ .

(١٣) Gibb : Op. Cit., PP. 26, 27, 50.

(١٤) ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، جـ ٢ ، ص ١١٣٠ .

(١٥) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢ .

(١٦) Gibb : Islamic Society and the West, Vol. I, P. 234

(١٧) عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ .

(١٨) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ .

جـ ٤ ، ص ص ٥ ، ٦ ، ١٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ١٠٣ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٢٥ — ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ — ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٩ .

(١٩) حول تطور علاقة آل سعود الاشراف انظر :

د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ص ١١٤ ، ١١٩ .

(٢٠) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٣٢ .

(٢١) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٣٣ .

(٢٢) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٣٤ .

(٢٣) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٣٥ .

(٢٤) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٤٦ .

(٢٥) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٥٣ .

(٢٦) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٦٠ .

(٢٧) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٦٤ .

(٢٨) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٧٣ . ويلاحظ أن استخدام الجبرتى لكلمة الخارجى فى هذا الموضع كان نقلا عن الوالى العثمانى الذى أورد الجبرتى نص عبارته فى الرد على الألفى الزعيم المملوكى .

(٢٩) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٧٨ .

(٣٠) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٣٠٠ .

(٣١) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٣٠٦ .

(٣٢) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٣١١ .

(٣٣) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ١٣٥ .
(٣٤) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٥ .
(٣٥) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٦ .
(٣٦) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٣٥ .
(٣٧) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ .
(٣٨) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٥ .
(٣٩) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٦ .
(٤٠) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ١٣٦
(٤١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٦٠ .
(٤٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
(٤٣) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٨٥ ،
(٤٤) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٨٩ .
(٤٥) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ص ١١٨ ، ١١٩ — تشير الوثائق المصرية الى أن أول تكليف من قبل السلطان العثمانى لمحمد على بالتدخل فى شبه الجزيرة كان فى عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) ولكن محمد على اعتذر بسبب تدهور أوضاع مصر الاقتصادية فى ذلك الوقت .

د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ٢٨٤ .
(٤٦) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .
(٤٧) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .
(٤٨) عجائب الآثار ، ج ٤ ص ١٣٦ و ١٣٨ .
(٤٩) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٤٦ .
(٥٠) عجائب الآثار ، ج ٤ ص ص ١٥٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٥١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ص ١٧٩ ، ١٨٠ — يشير الجبرتى فى ذلك الى اعتقال محمد على للشريف غالب عقب وصول الأول للحجاز — عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، القاهرة (١٣٧٠ — ١٩٥١ م) ص ١٤١ .
(٥٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .
(٥٣) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .
(٥٤) الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٤١ .
(٥٥) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .
(٥٦) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ .

(٥٧) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ ،
(٥٨) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢١٩ ،
(٥٩) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢١١ ،
(٦٠) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .
(٦١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ . ويقول الأستاذ أحمد على فى كتابه آل سعود ان الجبرتى اجتمع بالشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويبدو ان المؤلف اختلط عليه الامر لأن الشيخ عبد الرحمن بن حسن وصل الى مصر بعد سقوط الدرعية عام ١٢٣٤ هـ (١٨١٨ م) بينما الواقعة المشار اليها ضمن اخبار شهر شوال ١٢٣٠ هـ — انظر أحمد على : آل سعود (مكة المكرمة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٧ م) ص ١٩٩ .
(٦٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ص ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ .
(٦٣) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٨٩ .
(٦٤) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٨٩ .
(٦٥) عجائب الآثار ،ج ٤ ، ص ٢٩٠ .
(٦٦) عجائب الآثار ،ج ٤ ، ص ٢٩٩ .
(٦٧) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٠٣ .
(٦٨) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ .
(٦٩) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣١٩ .
(٧٠) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢١٣ .
(٧١) عجائب الآثار ج ٤ ، ص ٢٨٩ .
(٧٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ص ١٤٦ ، ٢٨٨ .
(٧٣) عجائب الآثار، ج ٤ ، ص ١٣٨ .
(٧٤) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .
(٧٥) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ .
(٧٦) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٣١ .
(٧٧) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢١٩ .
(٧٨) عندما بدأت حملات محمد على على الحجاز اراد أن يستغل الخلاف الناشب بين آل سعود والشريف حمود أمير منطقة أبى عريش فأرسل محمد على أحد أتباعه وهو يوسف أغا الى الشريف حمود ليعرض عليه التعاون مع قوات محمد على ضد قوات آل سعود فى عسير بقيادة طامى بن شعيب ، وعندما ذهب

محمد على بنفسه الى الحجاز فى أغسطس ١٨١٣ وجه قواته فى يناير ١٨١٥ نحو اقليم عسير وانتصرت قواته على طامى بن شعيب واستولت على رانية وبيشة وبعد عودة محمد على الى مصر قامت حملة بقيادة خليل باشا لضم منطقة ابى عريش ونجحت فى الاستيلاء عليها :

د . عبد الحميد البطريق : من تاريخ اليمن الحديث (١٥١٧ — ١٨٤٠) القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٥٠ .

(٧٩) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٠٣ .

(٨٠) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٩٩ .

(٨١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ .

(٨٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٨٣) يقول الاستاذ أحمد على فى كتابه آل سعود ان هذه الرسالة هى من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو أحد ابنائه :

أحمد على : المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٨٤) عجائب الآثار ، ج ٣ ، نص الرسالة ص ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

ويلاحظ ان الجبرتى أورد نص هذه الرســـالة فى بداية تناوله لحـركة الموحدين .

(٨٥) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٨٦) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ .

(٨٧) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ، ص ١٦ .

(٨٨) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٥٠ .

(٨٩) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٦ .

(٩٠) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٦ .

(٩١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٨٥ .

(٩٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٨٦ .

(٩٣) عبد الرحمن الجبرتى ، بحوث ودراسات ، ص ١٤٣ .

(٩٤) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٩ .

❋ ❋ ❋

خـــــاتمة

ان أهمية الجبرتى كمؤرخ تظهر فى دقته ومضـــــوعيته فى تناوله لقضايا عصره ، فالسمة البارزة فى كتاباته هى الدقة ، ودقة الجبرتى تظهر فى استقصائه للحوادث وتحفظه فى الكتابة ، فهو يقول تعليقا على حوادث عام ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) تأكيدا لهذه الحقيقة « وانقضت السنة بحوادثها التى قصصت بعضـــها اذ لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم فى الرواية ، فلا أكتب حادثة حتى أتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار ، وغالبها من الأمور الكلية التى لا تقبل الكثير من التحريف وربما أخرت حادثة حتى أثبتها ويحدث غيرها وأنساها فأكتبها فى طيارة حتى اقيدها فى محلها ان شاء الله تعالى عند تهذيب هذه الكتابة »(٣) . ثم يقول فى موضع آخر « ولم أخترع شيئا من تلقاء نفسى والله مطلع على أمرى وحدثى »(٤) . كما تظهر دقة الجبرتى ايضا فى الطريقة التى أتبعها فى جمع مادة (عجـــائب الآثار) فهو يقول بعد أن استعرض صعوبات الكتابة وقلة المصادر « وكنت قد ظفرت بتاريخ من تلك الفروع لكنه على نسق فى الجملة مطبوع لشخص يقال له أحمد جلبى عبد الغنى مبتدئا فيه من وقت تملك بنى عثمان للديار

---

(١) كان الجبرتى قد أخرج الجزء الخاص بفترة الحملة الفرنسية تحت عنوان « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » ثم اجرى عليه بعض التعديلات بطريقة جعلته اكثر موضوعية مع اضافة احداث الفترة من ١٢١٦ ــ ١٢٢٠ هـ .

(٢) ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ج ٣ ، ص ص ١١٣٠ ، ١١٣١ .

(٣) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .

(٤) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٩٣ .

المصرية وينتهى كغيره ممن ذكرنا الى خمسين ومائة وألف هجرية ثم ان ذلك الكتاب استعاره بعض الأصحاب وزلت به القدم ووقع فى صندوق العدم ومن ذلك الوقت الى وقتنا هذا لم يتقيد أحد بتقييد ولم يسطر فى هذا الشأن شيئا يفيد فرجعنا الى النقل من أفواه الشيخة المسنين وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين وما انتقش على أحجار ترب المقبورين وذلك من أول القرن الى السبعين وما بعدها الى التسعين أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها ومنها الى وقتنا أمور تعلقناها وقيدناها وسطرناها »(٥) .

أما موضوعية الجبرتى فتتجلى فى أنه كان يكتب للحقيقة وحدها وهى حقيقة يؤكدها ما كتبه الجبرتى عن عصر محمد على ؛ فالجبرتى انتقد الكثير من أعمال محمد على فى الجزء الرابع من (عجائب الآثار) وهو النقد الذى جر عليه الكثير من المتاعب ومنها قتل ابنه الوحيد خليل عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م)(٦) . لكن ذلك لم يمنع الجبرتى من ان يقول كلمة حق يلخص فيها رايه فى حكم محمد على « وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه »(٧) .

وقد أشار الجبرتى الى هذه الحقيقة فى مقدمة الجزء الأول من (عجائب الآثار) بقوله « ولم اقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير او أمير ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسى أو غرض جسمانى »(٨) .

---

(٥) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٦ .

(٦) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ، جـ ١ (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٦ .

(٧) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ٢٥٨ .

(٨) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٦ .

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

صدر فى هذه السلسلة :

١ ـ **مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ،**
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ـ **عـلى ماهـر :**
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ـ **ثورة يوليو والطبقة العاملة :**
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ـ **التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة ،**
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ـ **غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى ،**
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ـ **صلاح الدين الأيوبى ،**
د. عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧

٨ ـ **رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية ،**
د. على بركات ، ١٩٨٧

٩ ـ **صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،**
د. محمد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ـ **توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ،**
محمـود فـوزى ، ١٩٨٧

١١ ـ **مائة شخصية مصرية وشخصية ،**
شكرى القاضى ، ١٩٨٧

١٢ ـ **هدى شعراوى وعصر التنوير ،**
د. نبيل راغب ، ١٩٨٨ .

١٣ ـ اكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية ،
د· عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيـــام الدولة الطولونيــة ،
د· سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى ،
د· على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ـ ١٩٥٢) ،
د· حلمي أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ،
د· محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ،
د· على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د· أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ـ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراســلات السريــة بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ،
د· محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،
د· توفيــق الطويل ، ١٩٨٨

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر ،
جمــال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ٢ ، امام التصوف فى مصر : الشعرانى ،
د·توفيــق الطويل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ،**
د٠ نجــوى كامــل ، ١٩٨٩

٢٥ ـ **المجتمع الاســلامى والغرب ،**
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩

٢٦ ـ **تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،**
د٠ سعد اسماعيل على ، ١٩٨٩ ٠

٢٧ ـ **فتح العرب لمصر ، ج ١ ،**
تأليف : الفريد ج٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٨ ـ **فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،**
تأليف : الفريد ج٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٩ ـ **مصر فى عصر الاخشيديين ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

٣٠ ـ **الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،**
د٠ حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٠

٣١ ـ **خمسون شخصية مصرية وشخصية ،**
شــكرى القاضى ، ١٩٨٩

٣٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩

٣٣ ـ **مصر وقضــايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضــاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،**
د٠ خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩

٣٤ ـ **تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،**
د٠ يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ **اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠

٣٦ ـ **المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،**
تأليف : هاملتون بووين ، ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ **الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،**
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ **فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،**
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠

٣٩ ـ **قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،**
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ **الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،**
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ **محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،**
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ **تكوين مصر عبر العصور ،**
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ **رحلة فى عقول مصرية ،**
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ **الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١

٤٥ ـ **الحروب الصليبية ، ج ١ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د. حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ **تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ـ ١٩٥٧) ،**
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ـ **تاريخ القضاء المصرى الحديث ،**
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ـ **الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،**
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١

٤٩ ـ **العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩) ،**
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ،**
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٣

٥١ ـ **تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ،**
(أبحاث الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، فى ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ـ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر ،**
د. الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ **اربعة مؤرخين واربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،**
د. محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ **الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د. محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ـ **الحروب الصليبية ج ٢ ،**
تاليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ـ **المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراسة عن اقليم المنوفية ،**
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٢

٥٧ ـ **مصر الاسلامية واهل الذمة ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ـ **أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة ،**
د٠ ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ـ **الراسمالية الصناعية فى مصر ، من التمصير الى التاميم (١٩٥٧ ـ ١٩٦١) ،**
د٠عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ـ **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،**
د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية .**
تأليف :د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٤ ـ **مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء : دراسة وثائقية ،**
د٠ محمد نعمان جلال : ١٩٩٣

٦٥ ـ **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ ـ ١٩١٧)،**
د٠ سهام نصار ، ١٩٩٣

٦٦ ـ **المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى ،**
د٠ نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ ـ **مساعي السلام العربية الاسرائيلية : الاصول التاريخية ،**
(ابحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ ـ **الحروب الصليبية ، ج ٣ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٣

٦٩ ـ **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ ـ ١٩٥١) ،**
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ ـ **اهل الذمة فى الاسلام ،**
تأليف : أ.س. ترتون ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ ـ **مذكرات اللورد كلين (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ ـ **رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ) ،**
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ـ **تاريخ جامعة القاهرة ،**
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، فى العصر الفرعونى ،**
د. سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ـ **اهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،**
د. سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ــ **دور التعليم المصرى فى النضـال الوطنى (زمن الاحتـلال البريطـانى) ،**
د٠ سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

٧٧ ــ **الحروب الصليبية ، ج ٤ ،**
تأليف : وليم الصـورى ، ترجمـة وتعليق : د٠ حسـن حبشى ، ١٩٩٤

٧٨ ــ **تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ــ ١٨٩٩)**
نعمات أحمد عتمان ، ١٩٩٥

٧٩ ــ **تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،**
تأليف : فريـد دى يونج ، ترجمـة : عبد الحميـد فهمى الجمـال ، ١٩٩٥

٨٠ ــ **قنـاة السـويس والتنـافس الاسـتعمارى الأوربى (١٨٨٢ ــ ١٩٠٤) ،**
د٠ السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ــ **تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمـة يونيو الى نصر اكتوبر ،**
د٠ رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ــ **مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيـام الدولة الطولونيـة ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ــ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،**
احمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ــ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ــ **تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ــ ١٩٥٢) ،**
د٠ حلمى احمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ــ تــاريخ التجــارة المصريــة فى مصر الحريــة الاقتصــادية (١٨٤٠ ــ ١٩١٤) ،
د٠ أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ــ مذكرات اللورد كليرن ، ج ١ ، (١٩٣٤ ــ ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ــ التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ــ تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،
د٠ عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ــ معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،
د٠ نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ ــ تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيــلد : ترجمــة : عبد الحميــد فهمى الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ ــ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ــ ١٩٣٦) ج ٢ ،
نجــوى كامــل ، ١٩٩٦

٩٣ ــ قضايا عربية فى البرلمــان المصرى (١٩٢٤ ــ ١٩٥٨) ،
د٠ نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ ــ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ــ ١٩٥٤) ج ٢ ،
د٠ ســهير اســكندر ، ١٩٩٦

٩٥ ــ مصر وافريقيا ٠٠ الجذور التاريخيــة الافريقية المعــاصرة
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافــة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراســات الافريقية بجامعة القاهرة)
أعدها للنشر د . عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ **عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠) ،**
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة د٠ عبد الرءوف أحمد عمرو

٩٧ ـ **العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،**
د٠ ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ ـ **هيكل والسياسة الأسبوعية ،**
د٠ محمد سيد محمد

٩٩ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) ج ٢ ،**
د٠ سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،**
تأليف : أ٠د٠ عبد العزيز صالح ، أ٠د٠ جمال مختار ، أ٠ د٠ محمد ابراهيم بكر ، أ٠ د٠ ابراهيم نصحى ، أ٠ د٠ فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ٠ د٠ عبد العظيم رمضان

١٠١ ـ **ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،**
تأليف : اللواء/ مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء/ عبد الحميد كفافى ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ **المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢**
د٠ تيسير أبو عرجة

رقم الايداع ١٩٩٧/٣٤٢٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01— 5125 — 4

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة

يتضمن هذا الكتاب ثلاثة فصول: الفصل الأول عن المؤرخ والعصر، ويتحدث عن الواقع السياسى والاجتماعى فى عصر الجبرتى. والفصل الثانى عن ثقافة المجتمع المصرى فى عصر الجبرتى، ويفند فيه الدكتور على بركات الرأى القائل بمسئولية العصر العثمانى وحده عن التدهور الذى أصاب الحياة الفكرية والدينية، ويحدد الأسباب الحقيقية برؤية شاملة.. أما الفصل الثالث فهو عن الجبرتى والفكر السلفى، ويتضمن رؤية الدكتور على بركات لموقف الجبرتى من الفكر السلفى، التى انتهى منها إلى أن الجبرتى كان سلفيا فى فكره.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب